ابراهيم صموئيل

النجمات

قصص قصيرة

النخبات

صدر للمؤلف

رائحة الخطو الثقيل ـــ قصص قصيرة

دمشق ـــ دار الجندي

ط١ ١٩٨٨

ط٢ ١٩٩٠

الغلاف للفنان :

يوسف عبد لكي

ابـراهيم صمـوئيل

النحات

قـــصص قصـــيرة

الجندي للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : تشرين الأول ١٩٩٠

دار الجندي للنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ ص . ب : ١٠٥٣٠ ـ هـ : ٤٢١٢٥٤

إلى الأصدقاء، الأصدقاء.

الناس.. الناس

قبل أن يدير السائق المقود بحركة مفاجئة ، ويحيد الباص إلى يمين الشارع ، في المسافة القصيرة بين موقفي القزازين والمعرض ، ويتوقف ... كان كل راكب من الواقفين يمسك بمسند مقعد مجاور ، أو أنشوطة جلدية ، أو حافة نافذة ، أو كتف راكب آخر .. وهم يتماوجون ويتلاطمون من عزم السرعة وحدّة الانعطافات لدى تجاوز السيارات الأخرى ، فيما كانت عيونهم تشخص إلى الواجهة الأمامية نحو الطريق ـــ كأنهم يشاركون في القيادة ـــ يشهق بعضهم مع فرملة خاطفة ، وبعضهم يبسمل ويحوقل لحظة اقلاع جديد ، يتلهله بعضهم لو مال الباص ، ويلعن بعضهم إن فشل في تجاوز أو عبور ... تراهم قلقين مضطربين فزعين ، كما لو أُنيطت قلوبهم إلى عجلات الباص ووضعت أرواحهم على أكفهم حتى تأتي ساعة الفرج ويصلون الموقف الأخير ..

وفوق هذا كله ، فإن غزارة الأمطار صبيحة ذلك اليوم قد أسهمت ، كما يبدو ، في دبِّ الذعر والتوجس في نفوس الركاب من انزلاق مفاجيء أو تصادم مباغت يودي بحياتهم جميعاً أو حياة غالبيتهم على أقل تقدير .

ولذا ما إن حاد الباص وتوقف حذاء الرصيف .. حتى رأيت وجوه الواقفين قبل الجالسين ، وقد بشَّت كأنهم استعادوا أنفاسهم بعد احتباس طويل !

غير أن البشاشة لم تدم سوى لحظات ، إذ سرعان ما شدَّ الفضول الركاب لمعرفة سبب التوقف هذا ، خصوصاً وأنه تمّ على عجلٍ ، وبين موقفين ، وفي ساعة الصباح ، وقت توجّه الناس إلى وظائفهم وأعمالهم .

ولم يحتج الأمر إلى انتظار !

فحال توقف الباص ، التفت السائق، واضعاً سبابته على صدغه ، وقال لراكب مربوع يقف خلفه ، بنبرة عصبية وصوت ممطوط :

ــ أخي ... أنا بمشي على كيفي ، مو على كيفك وكيف التاني والتالت ... فهمت ؟!

ردَّ الراكب المربوع بتحد :

ــ لأ سيدي ما فهمت ! بدّك تمشي على كيفي وكيف غيري وعلى مهلك كمان ... إي خير إن شاء الله طاير طيران ؟!

ــ بطير ما بطير انت ما دخلك !

ــ دخلني ونص .. انت مو وحدك بالباص .. معك أرواح .. العمى صحيح !

هاج السائق :

ــ العمى يعميك ولاه .. أنا ما بمشي غير على كيفي .. ما عجبك شرّف انزيل !

ــ لك شو انزيل ما انزيل .. هادا باص أبوك هاد ؟!

ــ إي سيدي .. باص أبي ونص ..

ــ لأ سيدي .. مو باص أبوك ، وبدك تمشي على مهلك مو بكيفك ..

ــ لأ باص أبي .. وأنت بدك تنزيل ورجلك فوق رقبتك

وهبَّ السائق واقفاً ، فيما اندفع بعض الركاب يفصلون بينهما صاح راكب من الخلف :

ـــ وكّلوا الله يا جماعة .. الشغلة مو محرزة ..

التفت الراكب المربوع إلى الخلف :

ـــ يا أخي شلون مو محرزة .. مانك شايفه طاير متل الطيارة ؟!

صاح السائق :

ـــ وبدي طير متل الصاروخ كمان .. أنا سائق الباص مو أنت .. شرّف علمنا السواقه .. حلو والله !!

تدخّل راكب موجهاً كلامه للرجل المربوع :

ـــ ولك يا خيو .. ليش من كل هالناس ما حدا حكى غيرك ؟ إي اترك الزلمة يسوق على كيفه .. بدنا نروح لشغلنا !

عقّب السائق ساخراً :

ـــ لأنه حضرته لعوجي وكتير غلبه .

ردّ الراكب المربوع :

ـــ ولك لأنك أنت أهوج وطايش .. بس مو الحق عليك .. الحق ع الساكتين لك .. لأنه والله لو في مين يردّك ما كنت عملت فينا هيك ..

هبَّ السائق ثانية :

ـــ بتطلع ستين أهوج وحمار ولاه ..

وكادا يشتبكان لولا ازدحام الركاب وتدخلهم . صاح رجل عجوز مغتنماً برهة صمت :

ـــ يا ابني والله عيب .. امشي وتوكل ع الرحمن ..

ردّ السائق :

ـــ لا وحياة عينك .. ماني متحرك إلا ما ينزل وأمشي على كيفي .. وهه ..

وأوقف المحرك فكتم هديره وعلا هدير الركاب . علّق فتى جالس في

الخلف :

ـــ إي شو عليه .. يللي ببيت أهله على مهله ..

أضاف رجل نحيل جالس قربه :

ـــ يا جماعة .. المستعجل ياخد تكسي ..

عقّبت امرأة واقفة تحمل طفلاً :

ـــ يا أخي منشان الرسول إمشي .. يوه .. الولد رح يموت من البرد !

ردّ السائق مشدداً على كل كلمة كمن يعلن عن بضاعة :

ـــ ماني ماشي .. لحتى الأفندي .. يشرّف وينزل

ثمّ رفع ساقيه فوق غطاء المحرك واستند إلى النافذة .

راكب طويل بدين يبلغ الأربعين تقريباً ، كان يقف جوار الراكب المربوع . التفت إليه يلكزه نابراً :

ـــ وحضرتك ليش كتير غلبه .. ما تترك السائق يمشي على كيفه وما تدّخل !؟

إندهش المربوع :

ـــ شلون على كيفه ! يهورنا أحسن ؟ نحن عبيد مراقه ؟!

ردّ الرجل الأربعيني بحزم وتحدّ :

ـــ إي سيدي .. نحن عبيد مراقه .. احترم حالك .. هو موظف وبيعرف مصلحة الناس أكتر منك .. فهمت ؟

ورغم أنه لفظ « فهمت ؟ » هذه بلهجة التهديد والوعيد .. غير أن الرجل المربوع علّق متعجباً :

ـــ وإذا كان سائق الباص ..؟! يعني نحن طرش غنم ! يعني بتصير أرواح كل هالناس على حسابه !؟

ولم يكد يلتفت نحو الركاب ، كما لو كان يسألهم ، يأمل مؤازرتهم ... حتى أمسكه الأربعيني من كتفه ودفعه نحو الباب دفعاً .

عندها ، بدوا الركاب وكأنهم ، بفارغ الصبر ، كانوا ينتظرون هذه اللحظة ... فتزاحمت الأيادي تدفعه ، وتداخلت التعليقات :

ـــ إي نزلو خيو .. حاجتو فلسفة ..

ـــ لك نزلو .. نزلو .. مو ناقصنا محامين ..

ـــ نزلو .. يعني منشان زله نتعطّل عن شغلنا ..

ـــ نزلو .. يقطع عمره شو كتير غلبه .. كنا وصلنا هلق ..

ـــ إي نزلو .. متنا من البرد .. يوه ..

من داخل الباص ، وعبر نوافذه المغلقة ، بدا الرجل المربوع حزيناً ومفرداً تحت المطر ، يحاول مداراة خيبته واستيائه بتطويحات طائشة من يديه .. أما الركاب في الداخل ، فقد انتشرت بينهم ، للوهلة الأولى ، حمى الهرج ، وكأنما لذّ لهم انكسار الرجل المربوع وعلائم الظفر على وجه السائق ، فأفلتوا تعليقاتهم المشجعة :

ـــ شدّ .. الله مع دواليبك ..

ـــ روح .. لا تلحقني مخطوبة ..

ـــ مر وعدّي بس اوعا التحدي ..

ـــ روح .. شايفلك ..

سوى أنهم ، في الوهلة الثانية ، حين عشّق السائق السرعة ، وجأر الباص مقلعاً كثور هائج ... انخطفوا إلى الخلف وشهقوا ، ثمّ استووا صامتين ، يمسك كل منهم بمقعد مجاور ، أو أنشوطة، أو كتف ، أو نافذة .. يتمايلون ويتلاطمون .. مبسملين ، قلقين ، متلهفين ، مذعورين ، كما لو أن قلوبهم أنيطت إلى عجلات الباص ، ووضعت أرواحهم على أكفّهم حتى تأتي ساعة الفرج ويصلون الموقف الأخير ..

حزيران /١٩٩٠

شتاء طويل

ـــ جاؤوا ...

ما كادت تصيح وتنتفض مخلوعة القلب ، كأنما حفَّ جلد أفعى بجسدها العاري تحت اللحاف .. حتى نتر يده كما لو سرت العدوى إليه من خلف عنقها وغائر نهديها ، وانتفض مثلها فانكشفا معاً : هو بصدره العريض تتلألأ فوق شعيراته حبيبات العرق اللامعة ، وهي بنهديها المرتجفين فوق بركان قلبها ..

صامتين ، مترقبين ، وجلين ، التفتا نحو الباب . لا ندهة ولا صوت . سكون رابض منتظر كتيم ، لا يشققه سوى وجيب قلبيهما ، وتدافع مرتبك لأنفاسهما يزيد في ترقبهما وخوفهما .

برهات قليلة ، مرت كأنها ساعات ، ظلّا في جمودهما . بعدها ، نظر إليها يسألها بعينيه الشاكّتين ، فردَّت عليه بنظرات مضطربة هلعة . حرك رأسه دون أن ينبس .. فقلبت شفتها السفلى تزيد في حيرته ، وبقيت عيناها محملقتين بفزع مبهم .

حاول بصوته كبت خوفه النابت ، فهمس :

ـــ ما بكِ ؟!

باحت بصوت بدا وكأنه مطمور تحت اللحاف :

ـــ أما سمعت ؟!

بلمحة ، فتَّش ذاكرَته فوجدها خاليةً من أي صوت أو حركة غريبة . ربما لأنه كان غارقاً في أحضانها كما لو كان غاطساً في البحر . أو

بسبب من طغيان لهاثه الجموح . أو ربما سمع ولم ينتبه ، أو انتبه ولم يأبه أو يخمّن كما ، لا بد ، خمّنت !

أمسك يدَها تحت اللحاف فأحس بارتعاشها . همس لها من ناهد توجسه :

ـــ وما سمعت !؟

خفضت صوتها كمن يبوح بسر بين جمع :

ـــ صوت السيارات في أول الحارة ..

جاب الحارة بمخيلته : لم يتأخر أو يبكّر عن الساعة المتفق عليها ! ولا دخل الدار من بابها ! ورغم البرد والمطر الغزير ، دار أكثر من دورتين حوالي الحارة ! أبواب الجيران ونوافذهم كانت مغلقة بالعتم والصمت . وتذكّر أن البستان المجاور ، عدا بضعة كلاب ، كان خالياً ! وانه عمل بتنبيهات الشباب ، قالوا له : «قد تكون الدار مراقبة من ناحية الباب .. ولذا التفّ من الخلف ، صوب شجرة التوت ، واصعد» . وكذا فعل ! لا بل حتى حين صعد الشجرة ووصل إلى منتصفها ، تلفت نحو أسفلها وحواليها ، بعيداً عنها ، فلم يلمح أحداً ! ولحظة قفز إلى أرض الدار وخبطت قدماه ، ظل مقرفصاً لاطئاً يسترق السمع لأية نأمة أو نحنحة تنمّ عن تنبّه الجيران لصعوده أو نزوله . وخطر له أن ينقف نافذة الغرفة بحصاة ، لكنه ما فعل ، لأن الباب كان ، كما الاشارة ، مواربا . وحين تسلل إلى الغرفة لم يوقظ أولاده . صحيح أن الشوق ذبحه لحظتها ، وحرقته أنفاسهم المتجمعة في الغرفة .. لكنه كبس على جرحه ملحاً ولم يفعل خوفاً من تهللهم وهرجهم وصياحهم فينبهوا الجيران . اكتفى بأن غمر رؤوسهم الصغيرة الغافية بقبلات خفيفة ، واحتضنهم بعينيه لدقائق، ثم ضمّ زوجته بصمت. أخرس وغابا معاً ... فكيف عرفوا بوجوده ؟! كيف عرفوا ! كيف !!

قال يبعد هاجساً ساوره مد فكر بلقائها :

ـــ متأكدة ؟!

ـــ طبعاً . هكذا سمعت . مثل انغلاق أبواب سيارات في أول الحارة !

ـــ هس س س ..

ضغط على أصابع يدها ، وحاول نزع اللحاف عنه ، فأحس بشلل في ساقيه . كأنهما غائصتان ملتصقتان بالدفء الحنون السائح حول جسديهما . ذائبتان في حرارة الدنيا التي آوت إلى فراشهما . موغلتان في طراوة جسدها اللاذ بجسده وكأنها المرة الأولى ...

قال يؤجل اللحظة التي لا بد منها :

ـــ ربما كان صوت المطر في الخارج .. خرخرة المزاريب ؟

ـــ حسان .. قلبي يقول لي : هم . ثم اسمع .. اسمع الآن ...

أدارت وجهها نحو الباب ، وراح ينصت كاتماً أنفاسه ، فسمع ما يشبه لغطاً بعيداً .. وقع خطوات غامضة غير منتظمة . نطّ من فراشه ، ونطت معه . همس لها :

ـــ لا تضيئي النور . ابحثي معي عن الثياب ، ولا تفتحي ان دقوا ..

وراح يفتّش ، باللمس المتوتر المتخبط ، عن ثيابه ، وكذا راحت أفكاره تتخبط في رأسه : « يعني وما كان لزوم مجيئي أصلاً !! الجماعة طلعت روحهم وما لقطوني ! هكذا .. ببساطة جئت إليهم بأقدامي !؟ كيف غلطت هذه الغلطة !؟ كيف لم أفكر بأنهم ... يا سيدي ! لا غلطة ولا كفرة ! وما الصحيح ؟! أن أبقى بعيداً عنها ، متخفياً مثل الفئران !! عام ونصف .. طقّ قلبي ! نشفت روحي ! متخف عنهم .. فهمنا ، وعنها أيضاً ! عن أولادي ! » وتقلقلت أفكاره مع تقلقل حركاته المتلاحقة وهو يلبس ثيابه « ثم .. لم افترضنا فوراً أنهم جاؤوا ؟! ربما

ليسوا هم ! قد تكون مجرد قرقعات ظننا أنها ....» وفكر أن يسألها ليصدق رغبته :

ـــ ميساء ..

ـــ نعم ؟

ثم عدل عن سؤاله . فقد بدا له سخيفاً . لا طعم له . أينتظر حتى يدخلوا البيت ليصدق !! قال بحسم تردده :

ـــ ميساء .. ابحثي معي .. أين الكوفية ؟

وراحا يبحثان .. «ومن أجل لقاء تتركهم يلقطونك !؟ لعن الله فكرتي من أساسها . يا أخي لولا البرد والوحشة والغربة ما كنت ... الواحد منا في عزّ الشتاء يشتهي بيته . يكفر بالشوارع الخالية والوحل والتنقل وآخر الليل . يشتاق لرائحة أولاده . يحن لزعرناتهم .. لالتفافهم حوله وتدثرهم به . فهمت أنني مطلوب ومتخف وما لا أدري ... وفهمت أنه ...»

قطعتْ أفكاره وهي تساعده في لفّ الكوفية على رأسه :

ـــ حسان ... عجّل ... يمكن أن ...

شدَّ الكوفية على رأسه ، واتجه ، على رؤوس أصابعه ، نحو باب الغرفة . فتح الباب ، فرأى وابلاً من العتمة والمطر والسكون يملأ الدار . ليس من صوت سوى تكتكات حبات المطر على صفائح التنك والخشب وأرض الدار .. تكتكات متتالية ، متسارعة ، قلقة مثل دقات قلبه . أخذ يدها وهرولا نحو أغصان شجرة التوت المدلاة . سحبها من العتمة وضمها إلى صدره .

ـــ ميساء .. لا توقظي الأولاد ، ولا تخبريهم بمجيئي . إن دقوا الباب فلا تفتحي . دعي الجيران يفتحون وتظاهري بالنوم . أنا ذاهب . قولي للشباب أن الموعد الرئيسي قد ألغي .. أراهم في الموعد الاحتياط ثم لا

تنسي ...

وسكت حين أحسَّ أن الوقت سيغدره . أمسك بغصن غليظ مدلى ، وكاد يدفع جسده إلى الشجرة حين نادته بصوت غائر مثخن ، كأنه آت من آخر الدنيا :

ـــ حسااان ...

التفت إليها، فما باحت أو قالت شيئاً. فردت يديها، ضمته، وشدَّت. شدّته حتى أحست أنها تكسِّر صدرها وتسكنه بين أضلاعه. تفتح قلبها، تدفعه اليه، ثم تغلق خلفه وتخفيه عن الدنيا كلها. تخفيه عن الصقيع الذي أحست، فجأة، أنه يأكل عظامها. وعن الليل المخيف الذي يسحُّ حولها الآن. عن حفيف الصمت المفزع. عن أصابع الشجرة التي تمتد لتسرقه منها. شدّت، تخفيه في عينيها اللتين اشتاقتا. عن عتم الدنيا ووحشتها، وعن الانتظارات، واللهفة، والترقب، والغياب... وعن الشتاء الطويل الذي لمّا ينتهِ من حياتهما.

وبغتة، مثلما ضمته من شوقها، دفعته من خوفها، إذ تناهى إليها وقع خطى قريبة من باب الدار. دفعته واستدارت تهرول. وفي اللحظة التي غاب فيها بين الأغصان نحو الحارة الخلفية، كانت قد دلفت إلى الغرفة. أغلقت الباب بحذر، ثمّ اندست في الفراش، والتحفت.. فأحست بوحدة تأكل جسدها، مثلما كان التوجس المتحفز يفعل بقلبها المنصت □

شباط /١٩٨٩

ماذا قلت ياأبي؟

ارتميت منكباً على صدره ، وقرّبت أذني من فمه لأفهم ما يقول ... غير أن صوته غار ثانية في التأوهات، تحت وطء الغيبوبة وجسّ أيدي الطبيبين وتدافعها العجول المنظّم فوق جسده الممدد على السرير المعدني داخل غرفة الاسعافات في بداية رواق المستشفى .

ــ قل يا أبي ... ماذا تريد ؟.. قل ..

ندهتُ .. فربتتْ الممرضة على كتفي لأبتعد عن جسده :

ــ لا تهتم .. هذا أنين المرض .

وراحت تجفف زبداً رغا على شفتيه ..

تراجعتُ غير مصدّق ما قالته . فمنذ يومين ، وكنت قرب فراشه في البيت ، ناداني بأصابعه الواهنة وقال لي بصوت منهك : «ابق إلى جانبي .. لي حديث معك .. إذا مدَّ الله في عمري» يومها رجوته : «قله الآن يا أبي .. ها أنا أسمعك ؟» غالب تعبه بابتسامة كابية عارفة : «لا تخف .. مرضت كثيراً .. ورأيت كثيراً .. لكني لم أمت .. عمر الشقي بقي» وحينها جفلت . قبّلته ، ودعوت له بطول العمر .. ثم صرت ظلّه الواجس .

وقبل قليل ، في سيارة الاسعاف ، همهم شيئاً ، كأنه قال ، لكن لهوجتي وضجيج المحرك والزمور المتقطع .. بددت كلماته !

أومأ لي طبيب ، وانتحى بي جانباً :

ــ هل كان أبوك يشرب كثيراً ؟

ـــ بلى كان يشرب .

همس الطبيب الذي سألني في أذن طبيب لم يسأل . همست لنفسي : وأحلى شارب في الدنيا . على أطراف البركة ، في حوش الدار ، أول المساء ، كان يوزّع صحون البطاطا المقلية والبزر والجبن والمخلل والزيتون .. فأتدافع واخوتي ، متسابقين ، إلى ساقيه يفوز من يحتل ركبتيه ، فيحرد من يحرد ويشمت من يشمت ... لكن ذراعيه المشرعتين على الرحب كانتا تجمعنا وتنسينا خلافاتنا ، فيقهقه وهو يقول لأمي : «لك يا مرا ... الدنيا بلا شراب خراب» ونسبق أمي إلى جوابها المعتاد الذي حفظناه : «هي خربانة خربانة بشراب وبلا شراب» وتغمر الدار ، والدنيا ، ضحكات رقراقة مجلجلة ...

نقر الطبيب على كتفي لأمسك يد أبي . رفعتها ، فأحسست بثقلها الغريب . راح يلفّ حول زنده قطعة لقياس الضغط ، فيما يتابع الطبيب الآخر الاصغاء لنبضات قلبه ، وترجّ الممرضة زجاجات صغيرة ملونة . مسحت ظاهر كفه ، فانسبلت الشعيرات السوداء الكثيفة حول أصابعه . قبّلتها ، وأدرت الكف الضخمة وغمرت بها وجهي ، فأحسست بأصابعه كأنها تتحرك . غرت بين الأصابع أكثر . الأصابع التي كان يمسح بها دموعي أو يشدني إلى صدره .. يحيط بها رأسي ، حين أسير قربه ، فأشعر كأن الله مدَّ يده ليخصني بها دون غيري .. أو كان ، وقت ألجُّ عليه ، يكاسرني بها ، فأكسره ، بعد جهد وطول عناء ، وأطير فرحاً نشوان إلى أمي أخبرها بانتصاري على أقوى بطل في العالم ...

أزاحني الطبيب مضطرباً ، ثم امتص بالحقنة قليلاً من الدم :

ـــ مصاب بالسكري ؟

ـــ لا !

ـــ فقر الدم ؟

ـــ لا !

ضغط باصبعيه على خديه ، ففغر فمه . دلق سائلين أبيض وأحمر ، والتفت إلى الممرضة التي كانت تلطم على باطن ساعد أبي بحثاً عن وريد ، وسألها بعينيه .. فأومأتْ أن لا فائدة . أخذ منها ابرة السيروم وراح يلطم ، بتسارع ، على عنقه محاولاً إيلاج الابرة ... دون جدوى . ترك العنق واقترب من الطبيب الآخر .

دنوت من أبي ، ولوّحت بكفي أمام عينيه .. فتغيرت تعبيرات وجهه . التصقت بصدره ، فهمهم .. ثم راح يومأمىء ويفأفىء .. يخطف شهيقاً ثم ينبر بأحرف متقطعة تعلو وتغور ثم تختفي . صحت :

ـــ أبي ... ماذا تريد ؟ أخبرني ؟ أنا هنا .. أبي ..

غير أن السكنية عاودت عينيه المفتوحتين على فراغ ، وتراخى وجهه . وجهه الذي كان يشّ ، كل ليلة ، قبل أن أغفو مع إخوتي . غابت لألآت ملامحه التي كانت تطالعنا صباح كل عطلة حين يوقظنا متلهفاً ، ونتوارى تحت الأغطية غاضبين ، فيصرّ ، رغم احتجاجات أمي ، إلى أن نتحلق حول أطباق الفول والحمص والنعناع والبصل اليابس والمخلل ... فنأكل بنهم ، مقلدين شهيته ، ثم « نشرق » الشاي الساخن ونحن موزعين على جسمه ، نصغي لحكاياته التي لا تنتهي ، ولا نملّها ، عن الحرب التي أخذت بنصره والهجرات والطيور الغريبة وأيام الجوع والخوف والليالي التشرد وعن الأمراض التي كادت تسرقه منّا وعن الـ ....

نبّهت الممرضة الطبيب إلى أن الضغط بدأ ينخفض ، فسارع الطبيب إلى الحقنة ، شدَّني : « أمله إلى جنبه » سحب منامته ، غرز حقنة في اليته ، ثم أولج ميزان الحرارة : « خلّ يدك هكذا » واستدار . الية أبي !! كأن جبلاً شاهقاً مهيباً راح يتقوَّض فيَّ ويتضعضع ! أمام عينيّ هتك الطبيب ، بومضة ، سرّ الأسرار ، فانكشف لي المخيف عن رعب راعب !

خمّنت أن أبي سيستدير لينهرني أو يقفل حاجبيه ويعض على شفته زاجراً .. لكنه ما فعل ! سحب الطبيب الميزان : «أعده» . وسأل زميله عن نبضات القلب ، فرفع حاجبيه وهز رأسه . عاين ابرة السيروم فوجدها منزلقة خارج الجلد . دنا من الممرضة وهمس ، فخرجت مسرعة ، فيما راح يحاول غرز الابرة في العضد ثم العنق ثم العضد الآخر . طلب مني أن أرفع كتفيه ، فأحطتهما ورفعت . كانا ثقيلين ... لكنهما عريضان وحنونان كما في تلك الأيام .. حين أطللت على الدنيا من فوقهما ورأيت العالم لأول مرّة .. حين كان يخطفني إليهما فأصرخ ، لبرهة ، فزعاً مذعوراً ، ثم انفلتُ بالضحك والنطنطة فيما ساقاي المسدلتان تطوحان على صدره حيناً وتثبتان داخل كفّيه الضخمتين الممتلئتين حيناً آخر ، فأتمايل وأتطوح دون أن أخشى انزلاقاً .. أنطنط من دهشتي كيف كبرتُ ، فجأة ، حتى صرت أطول من الناس جميعاً ، فأصفّق وأغني ثم أغمر في لحظة نشوة وجه أبي حتى أحجب عينيه ، فيضحك ضحكته المجلجلة إياها وهو يقول : «طيب ... دلني على الطريق الآن إذن يا باشا !!» .

مثل هبة ريح مباغتة ، دخلت الممرضة وناولت الطبيب مشرطاً . نبر بحزم من تراءى له الموت :

ـــ أمسكي كتفيه .. وأنت ساعدها .

والتفت إلى الطبيب الآخر .

ـــ ناولني السيروم ، وألحظ لي نبضات قلبه .

وبلمحة شقّ بالمشرط أسفل ساقه ، فانفلق اللحم وانفلق قلبي . التفتُّ إلى وجه أبي ، كان خالياً من أي ألم ، ممسوحاً بكآبة غريبة ، ساكناً وسط عينين فاغرتين لا ترفان ولا تتحركان ، تراجع معظم سوادهما للخلف ، فيما احتل البياض المصفرّ الفتحتين الكابيتين .

فجأة ، لحظة حرر الطبيب وريداً وغرز فيه ابرة السيروم ، اختلج جسد أبي كله ، وراح يرفع يده بتثاقل وشدّه وكأنه يدفع الكون عن صدره ، ثم تحركتْ حدقتاه كأنه يبحث عني . انبطحت على صدره :

ــ أبي ؟!

تلعثم بصوة بطيء ، زاحف ، ممطوط :

ــ نو ... ما .. م م .. عوو .. قا اا ...

ثم هوت بعدها يده وتطوحت ، فيما امتلأتْ أذني بزبد فمه ، ممزوجاً بأصوات مبهمة وحشرجات تتدافع عبر زفير قصير مقذوف وشهيق طويل يتقطع ويغيب .

صحت من رعب ولهفة :

ــ أبي ... ماذا قلت ..؟ ماذا تريد ..؟ أشر لي .. أنا هنا .

لكزني الطبيب :

ــ اتركه الآن .. ابتعد .. حين يشفى تسأله .

دفعته دون وعي ، وقد ملأني فزع من إضاعة فرصة لن تعود :

ــ اتركني أنت يا رجل .. أريد أن أفهم ماذا قال ..

وحاولت إحاطة وجه أبي .. غير أن الطبيب شدَّني بقوة ، ورفعه من كتفيه ، فيما كان الطبيب الآخر يحمله من ساقيه ، والممرضة ترفع كيس السيروم عالياً . مُدِّد على العربة المتحركة وانطلقوا به نحو المصعد .

ركضت خلفهم أقاتل شبحاً أحسست أنه غدر أبي هذه المرة . ركضت ، خائفاً ، كما في طفولتي حين كان يسهو عني في الطريق ، وأزعق فيستدير ، مدهوشاً ، ثم يغمرني وهو يطبطب على ظهري ويتابع خطوه السريع . زعقت .. فما استدار ، ولا تلفّت ، ولا طبطب على ظهري الذي انهدّ وانكسر !

في الطابق الثالث أدخلوه إلى غرفة مليئة بالمرضى . وضع الطبيب

جهاز مراقبة نبضات القلب على صدره ، ثم راح يضغط ، بكفيه . التفت إليّ لاهثاً :

ـــ انزل مثل البرق واجلب من المستودع اسطوانة أوكسجين .

استدرت ، ثم توقفت :

ـــ ولكن أرجوك .. انتبه إلى ما يقوله ..

وطرت من جنوني . لأوّل مرّة أحسّ أن حياة أبي بين يدي . طرت أهبط درجاااات ودرجاااات .. أهبط وأنزلق وأتعثر وأرتطم وألوب . رجوت أمين المستودع ، فدفع الاسطوانة الطويلة أمامه نحو المصعد . انطلقت أصعد الدرجات كما هبطت . انعطفت إلى الممر الأخير ، وكدت أواصل اندفاعي حين أمسكت يد الطبيب يدي ، وأحاطت ذراعه كتفي :

ـــ العمر لك .

طفحت كل أيام طفولتي من فمي :

ـــ أي عمر !! ماذا تقول !؟

وسرقت يدي وكتفي وفزعت إلى الغرفة ...

مسجى ، مجلّلاً بالبياض ، كانوا يرفعونه إلى العربة . صرخت : ماذا قال ؟! نزعت الشرشف ونثرت عصبة تحيط رأسه وذقنه : ستخنقوه ! غمرت وجهه : أبي .. قل لي .. هذه المرة سأسمعك ...

بكل ساعات انتظاري واحتراق شوقي .. غمرته . غمرته كما كنت أفعل دوماً عند أوبته وأنا صغير ، ورحت أصرخ في أذنيه :

ـــ أبي .. أنا قربك فقل .. أسمعك .. ماذا تريد ..؟

دفعوا العربة ، فتدحرجتُ خلفها وقد شجَّ صمته الأبدي عمري . بعقت من قهر :

ـــ أبي .. ماذا قلت يا أبي ؟ أبي ي ي ي .....

تشرين الأول /١٩٨٨

أصعد قاسيون.. وأنادي

لحظة انطلقت ضحكتها مترقرقة عالية .. بوغت ، كعادته ، وتساءل في سرّه عما عساه يفوِّر هذا الفم الجميل بالضحك كلما ألمح لها بحبه ؟

فهو جرَّب مرات الالماح إلى حبه ومصارحتها بمشاعره .. لكنه في كل مرة كان يباغت بضحكتها هذي التي لم تعن له رفضاً ولا قبولاً ، بل شيئاً آخر يحار في تفسيره أو فهمه ويزيد من إرباكه ، فيطوي مشاعره في الحال باختراع أي حديث أو سؤال أو تشاغل كأنما هي زلة لسان في لحظة انفعال .

وقد نوى هذه المرة أيضاً ، وهما يغذان السير في الطريق ، طي مشاعره والتكتم عما يختلج في قلبه ويعذبه كتمانه طوال عام مضى من ارتباطهما معاً ونشاطهما المشترك .. نوى ذلك بعد أن عجز في الماضي عن اقتناص الفرصة المناسبة للبوح بحبه ، أو التقاط الوقت الملائم للحديث عن مشاعر ومواجد تبدو له ، أو هكذا اعتادت الإيحاء إليه ، شخصية وذاتية بل وسخيفة إزاء المهام الجليلة الموضوعية الهامة التي يحملان أعباءها !!

وتكررت خيباته في أكثر من لقاء أحس فيه أن الفرصة الذهبية قد حلَّت لحظة تتأبط ذراعه ليلاً في مكان موحش ، أو تضم يديه وتشدّ عليهما بحرارة أو تندفع عفواً إلى معانقته من جراء نجاحهما في توزيع بيان أو عدد من الجريدة أو عقد اجتماع لآخرين ... ويهمّ في انتهاز الفرصة

والإلماح إلى حبه فتحبطه تلك الضحكة المباغتة ، المبهمة ، التي تطلقها ثم تلحقها بصمت مؤنِّب أو أي كلام مشاغل .

وكما تعوّد في المرات الماضية تجرُّع خيباته وإحباطاته ، هَيَّأ نفسه هذه المرة أيضاً لانتكاسة أخرى وهو ينتظر ، مبهوتاً ، توقف ضحكتها الغريبة الغامضة ...

لكن المفاجأة جاءت على غير ما توقع وتعود !

فما كادت تتوقف عن الضحك حتى علّقت ساخرة :

ـــ يقطع عقلك يا علي .. أهذا وقت الغرام ؟!

ردَّ مغتنماً الفرصة :

ـــ أليس للحب عندك وقت ؟

تلاشت ضحكتها وقالت ببعض الجد :

ـــ بلى .. ولتوزيع الجريدة وقت أيضاً !

ثم أغذّت السير ، وأغذَّ خلفها ..

ولدقائق ، راح يفكر كيف حيَّرته هذه المخلوقة !

صحيح أنها لم تصارحه مرة بشكل مكشوف جلي بحبها له .. لكنه كان يستشعر ميلاً نحوه ، راحة ما ، دفئاً شفيفاً تحيطه به ، خصوصية ما تخصه بها وحده غير مواضيع مهماتهما ونشاطهما ، كأن تشكو له أهلها أو كآبة انتابتها أو تعرض مشكلة غاية في الخصوصية عانت منها أو حتى بعض أحلامها الضائعة .. فيروّح عنها ويحاول أن يبحث عن حلول، بل ويبالغ ، أحياناً كثيرة ، في الاهتمام والتدقيق كأنها مشكلة الشرق الأوسط في محاولة للنفاذ إلى قلبها والتعبير عن حبه في حين تكتفي هي بقلب شفتها « لا تهتم ... مسألة بسيطة » ثم تغيّر الموضوع !

لكن الفرصة هي الفرصة . إنْ لم يغتنمها فاتت ، وهيهات أن تعود .

ولذا وجد نفسه يُسرِّب أصابعه في كفها فتنتابه رعشة قلق حاول أن

يواريها بالقول :

ـــ ما بكِ تركضين كأنهم يلاحقوننا ؟

ـــ وأنت ما بكَ تمشي وكأننا في نزهة !

قالتها باحتجاج خفيف أحس منه ببعض رضاها . لعَّب أصابعه كما لو كان يرمي سهمه الأخير .. فلم تجفل ، بل أطبقت كفها بحنو أذاب قلبه . وقبل أن يهمّ بالكلام كانا قد وصلا إلى البيت .

ـــ والآن يا أفندي .. اترك يدي لأفتح الباب !

وما أن دخلا حتى التفتت إليه :

ـــ لا تنس يا علي إننا ملاحقون دائماً ..

ردَّ غامزاً :

ـــ وهاربون دائماً .. !

ألقت جسدها على المقعد وسألته باهتمام بالغ :

ـــ قل لي .. أنهيت البارحة توزيع البيان ؟

ـــ اطمئني وزعته .. عدا مجموعة المنطقة الثالثة .. قدَّرت أنها ملغومة . أغمضت عينيها ممتعضة :

ـــ مذ عرفتك هكذا .. قدَّرت .. خمّنت .. ظننت .. متى ستقلع عن أوهامك وتخوفاتك يا باشا ؟

شعر بوخز فقطّب قائلاً :

ـــ إذا كنت تحكين بجد فأنت غلطانة ! أولاً لولا حذري لاعتقلت من زمن .. ثم ... ثم أي مهمة كُلفت بها وجبنت دونها ؟! معظم الشباب وعرفتك بهم .. المطبعة وعملت بها .. الجريدة بذلت كل جهدي في توزيعها .. الاجتماعات ...

حاولت ابتلاع استيائه :

ـــ على مهلك .. على مهلك ! ستقدّم لي تاريخك ؟! أعرفك عن

ظهر قلب . عام ونحن معاً يا شيخ . قصدت تشجيعك على مهمة اليوم .. أليس للمزاح عندك وقت ؟

تراخى انفعاله ..

ـــ بلى .. إذا كان للحب عندك وقت أيضاً !

نهضت عن المقعد وقالت بغنج ملحوظ :

ـــ رجعنا يا علي ؟!

شجّعه غنجها فباح لها بحبه :

ـــ زينب .. ما ذهبت حتى أرجع . إسمعيني مرة . أنا نفسي ترددت كثيراً قبل أن أقول . خفتِ أن تفهميني خطأً . صدقيني خفت من مشاعري قبل أن أخاف رأيك . أنّبت نفسي مرات ومرات .. لكن هذا الملعون في صدري ظل ، ببساطة ، يحبك .. وراح يحكي ويتدفق كما لو كانت الفرصة الأخيرة لمحكوم بإعدام . حكى لها كيف نمت مشاعره وكبحها . وكم اتهم نفسه ودانها . عن الصراعات التي عاناها خوفاً من ظنونها . وعمّا تعني له وما يشعر به من قوة بسبب وجودها إلى جانبه . وإذ راح يحكي كان يحاذر بعد كل كلمة حب ، ويتحفظ بعد كل بوح . يتلكأ ويندفع ويتعثر بكلماته ... حتى رفعت حاجبيها وترقرقت في ضحكتها المعتادة . لحظتها أومأ قائلاً :

ـــ هذه ! لا تحيرني سوى ضحكتك هذه ! ما الذي يضحكك ؟!

أجابت وهي تبدد ضحكتها :

ـــ أن تتحدث مثل العشاق المراهقين .

ردَّ باستياء وحزن :

ـــ مثل من تريدين أن أتحدث ؟ مثل لاعبي كرة القدم المخضرمين مثلاً !!

تكلّفت جداً بدا له مفضوحاً تماماً

ـــ كفى يا علي .. ليس وقته الآن

ناور تكلفها :

ـــ ومتى وقته إذن ؟

شفّت عيناها الشهلاوان عن وميضٍ غامرٍ ساحرٍ ، ثم ضمّت كفيه وقالت برقة عذبة :

ـــ لا تخف . وحده سيخبرك ذلك الملعون في صدرك .

أين كان قلبه الذي يحس به الآن ينبض نبضاً حتى يصل مسمعيه ، ويرقص مجنوناً يكاد يجنّنه معه ؟ لِمَ بدت الآن أقرب إليه من دمه ، وبدت الدنيا أجمل من حلم ؟ قال يحلم أكثر :

ـــ يعني ....

ـــ نعم يعني .. ولكن أما انتهينا بعد ؟ جئنا نتغازل أم نتدبَّر أمر المهمة !

ـــ وألف مهمة . ألف مهمة يا زينب . قولي مجنون ... ولكنني متحرق الآن لأن أصعد قاسيون وأنادي : أحبك يا زينب .

شدّته من يده برفق :

ـــ لا تصعد ولا تنزل . إجلس الآن وافتح أذنيك . لم يبق وقت . أما أنك مجنون فعلاً ...

★ ★ ★

على ظهر رزمة أعداد الجريدة أخذت ترسم الخطة على ورقة صغيرة . عيَّنت الشارع الذي ستقف فيه السيارة ذات اللوحة الغريبة . لونها . أشكال الموجودين داخلها . عددهم ... ثم حدّدت مكان وقوفهما .

نقرتْ برأس القلم على ساعة يدها .

ـــ أعطني انتباهك . بعد نصف ساعة سنكون هناك . أما كلمة السر المتبادلة ، كما اتفقت معهم ، فهي على الشكل التالي : تقول للراكب في الخلف :« هنا مستودع السيارات » فيجيبك : « لا .. هنا سوق الخضار » ، فتعطيه الرزمة ثم تتفق معه على موعد لقائكما القادم . أما أنا فسأظل على مسافة منكما .

ـــ ولِمَ ؟

ـــ حتى أتمكن ، لو حدث طارىء ما ، من إخبار الشباب فوراً . تمام ؟

ـــ تمام التمام .

وقفت تنظر إلى الساعة . اقترب منها وضمَّ وجهها إلى صدره

ـــ رائع لقاء اليوم . أليس كذلك ؟

أغمضت جفنيها بشدّة ثم فتحتهما . قالت :

ـــ حاذر . سأحمل الرزمة في حقيبتي حتى المفرق . هناك أدلّك على السيارة وتنطلق . هل أنبّهك أيضاً ؟

أراد أن يناكفها وهو يهمّ بالخروج :

ـــ أراك تنبّهين وتحذرين على غير عادتك !!

ابتسمت وهي تضبّ الرزمة

ـــ بسيطة.. اغفر لي هذه المرة .

وخرجا ...

لم يشعر مرة بالتحرر من المخاوف كما في هذه المهمة . كان مليئاً بالشجاعة وطافحاً بالقوة ومفعماً بالحب . استدارت تناوله الرزمة ، فلمح خطفاً ، اصفراراً موحشاً يسحّ من وجهها . كاد يسألها ، فسبقته بشفتين جافتين :

ـــ أترى السيارة الرمادية الواقفة قرب العمود في نهاية الشارع ؟

تلك هي .

حضن الرزمة تحت إبطه ، وخطا .. فأوقفته .

ـــ تمهل لأتأكد ...

حدقتْ ملياً .. ثم أومأت برأسها .

ـــ هيا . هم أنفسهم .

وانطلق ..

قطع الشارع ، وحاذى العمود ، ثم أبطأ ليتأكد من لوحة السيارة ، لونها ، الموجودين فيها . التفت إلى زينب .. كانت واقفة تراقبه « الشيطانة .. ماهرة في الوصف » ثم دنا من الشخص الجالس في الخلف :

ـــ هنا مستودع السيارات ؟

مثل قنابل موقوتة .. انفتحت الأبواب الأربعة . ارتطم وجهه وارتد إلى الخلف . فزعوا نحوه . استدار هارباً فأمسكوا به من قميصه . نَتَرَ نفسه والتفّ فالتفّ أحدهم لملاقته . زاغ عنه راكضاً فتعثّر وسقط . نهض يحاول ثانية فلمح زينب لمحاً . بأقل من طرفة عين رأى ضحكتها الوحشية الغامضة تندلق من وجهها . انبطح أرضاً وتدحرج ، فأحس بركلة عنيفة على رأسه .

حين رفعوه وأدخلوه السيارة ، خطف نظرة إلى زينب فرآها ترفع لهم إبهامها مثل شاهدة قبر ، ثم تستدير .. فيما راحت الدنيا تغيم في عينيه وهو يسقط من أعالي قاسيون ويتدحرج على صخور تنهشه نهشاً ..

كانون الأول /١٩٨٧

صباح ذلك الأحد

حدث الأمر بالصدفة المحضة ، تماماً كما يشدّك الفضول لتختلس نظرة أو تسترق السمع أو تجرّب ولو مرة ... فتجد نفسك أمام السرّ مباشرة ، في البرهة التي ينزلق فيها ، يخرج من أحشاء غموضه إلى النور ، فينكشف عن آخره تماماً ، دون حجب ولا هالات ولا أوهام ..

والصدفة حدثت بعد أن تركنا بيتنا القديم ، وسكنّا في آخر قرب الكنيسة ..

يومها لم تحمل الأرض أمي . إبتهجت وهللت لأننا صرنا قرب الله وتحت رحمته ورعايته ، ولم نعد ـــ كما من قبل ـــ نسكن آخر الدنيا ، مهملين ، مقطوعين ، لا تصل رحمته إلينا إلا بالكاد ! ولذا ، كانت مع كل شمعة تشعلها للعذراء مريم تعيد القول بأنها لن تخاف بعد الآن ، لأن الملائكة الحراس الذين يحمون بيت الله ، يحمون السكان المجاورين بالمعيّة ، ونحن أولهم بالطبع !

وكما لم تنقطع عن زيارة الكنيسة والصلاة فيها صباح كل أحد ، كذا دأبت على اصطحابي معها .. بل كانت تصرّ على أن أرافقها كي يسكن يسوع قلبي الطاهر ، كما تقول .

وقلبي يومذاك ، كان غضّاً ، فارغاً ، متعطشاً ، يبحث عمّا يرتوي منه .

ومع توالي الآحاد ، ونقطة خلف نقطة ، راح يمتلىء بالأسرار الكثيرة بحيث لم تعد الكنيسة كما تسميها أمي ، بيت الله فحسب ... بل مغارة

الأسرار أيضاً ، كما بتُّ أراها . سرّ القربان المقدّس ، وسرّ المعمودية ، وسرّ الزيت المقدس ، وسرّ المناولة .... أسرار متزاحمة تحيط بيّ ولا أفهمها . كلها تتلفع بروائح وألوان وطراوات تدهشني دائماً ، وتخيفني أحياناً .

وإلى ذلك ، كان هناك جسد يسوع العاري مصلوباً وقد كلّل الشوك رأسه وأدماه .. القديسون يطلّون من أطر خشبية عتيقة على الجدران وهم يحدّقون بنا . رنين الأجراس الصغيرة لطرد الشياطين . فوحان البخور الرمادي الكثيف ذات الشذى الغريب . رداءات الكهنة الفضفاضة ، الطويلة المزركشة ، تلتمع عليها خيوط مذهّبة مفضضة . رأس التنين في نهاية العكاز الذهبي الذي يحمله المطران . تراتيل الجوقة تخفت وتصدح في فضاء الكنيسة . القبة الضخمة المرتفعة قامات فوق قامتي . الشموع المحتشدة ترقّص لهيبها . ثمّ الصمت . صمت المصلين المحيّر تقطّعه ، بين حين وحين ، إشارات خاطفة من الجبين إلى السرّة نحو الكتفين . وجوه مطرقة وعيون مسبلة . تمتمات ، وغمغمات ، وتنهدات .. وبرغم هذا ، فسرّ الأسرار لم يكن في ذلك كله .

كان في الكأس .

في تلك الكأس التي ألمحها منتصبة وسط المائدة داخل الهيكل ، وكيف كان الكاهن يتمتم قليلاً ، ثمّ ينحني مقبّلاً شفتي الكأس . يتراجع خطوة . يشمر ثوبه . يسجد لثوان ، وينهض . بعدها يجلل الكأس بوشاح خمري ، تبرز من طرفه ملعقة فضية طويلة تنتهي بصليب صغير . يضمّ راحتيه إلى الكأس ، يرفعها بخشوع ، ثمّ يلتفت نحونا فتلتمع قاعدتها الذهبية المستديرة ، مرتّلاً : «خذوا كلوا . هذا هو جسدي الذي يكسر من أجلكم لمغفرة الخطايا ... واشربوا منه كلكم .. هذا هو دمي الذي يهرق عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا» فتردد الجوقة : «آمين» ويردد قلبي وجله وحيرته .

وأكاد لا أصدّق كيف يستجيب المصلون للحال ، فيتجمّعون ثمّ يصطفون أمام الكاهن لتناول اللحم والدم التي في الكأس !

والأغرب ، أن أمي كانت تفعل ذلك أيضاً !!

تتركني وحدي ، وتهرع لتصطف مع المصلين . فأرقبها ، خائفاً من وحدتي وجرأتها ، إلى أن تعود إليّ ، محنية الظهر ، ضامّة كفيها إلى صدرها ، تغمغم بما لا أفهمه !

وأرغب في سؤالها .. لكنني لا أجرؤ . أكتفي بالتحديق في شفتيها علّي ألمح أثراً ... غير أنني لا أرى سوى لمعة خفيفة تشبه لمعان قاعدة الكأس الذهبية ، فأكتم خوفي ، وأكتم كتماني بانتظار أن يسكن يسوع قلبي ، كما وعدتني أمي .

وحدث أن سألتها مرّة عمّا في الكأس .. غير أن جوابها زاد من حيرتي ووجلي ، وأكّد قلقي الصموت إذ قالت : «دم يسوع يا جورج . دم يسوع ولحمه الذي فدانا به ليغفر الله لنا ذنوبنا وخطايانا ، فنحن كنّا ...» وراحت تحكي عن الأخيار والأشرار وأبينا آدم وأمنا حواء وما لا أذكره . سوى أنها كانت تعيد القول وتؤكد أن ما في داخل الكأس هو لحم يسوع ودمه ، وهو ما «نتناوله» نحن الخطاة .

وكم تمنيت أن أسألها كيف جمعوا دم يسوع ؟ وكيف قطّعوا جسده ، وهل بينها عظامه ؟ ثمّ كيف تركهم يفعلون ؟ أما بكى وصرخ واستنجد بأمه ؟ وكيف .. ولماذا .. لكنني كنت أخشى أن أكفر ، وأن تسمعني الملائكة الواقفة على كتفيّ ، وتذهب إلى يسوع فتخبره ، فيغضب مني ولا يرضى أن يسكن قلبي .

وما من مرّة دعتني لأشترك معها في المناولة ، إلا وكنت أرفض بعناد ، أو أتحايل ، أو أزوغ عن ناظريها لحظة المناولة . وبقيت ممتنعاً ، زائغاً هكذا ، حتى صباح ذلك الأحد الذي لا أنساه ..

يومها ، كعادتي ، ذهبت مع أمي إلى الكنيسة ، وما أن استدار الكاهن بالكأس نحونا ، حتى نظرت أمي إليّ كأنها تدعوني ، ومضت دون أن تقول شيئاً .. فوجدتني أمضي خلفها .

ما الذي جرّني خلفها ؟ أكان الخوف من أن أبقى وحيداً ؟ أم غيرتي من الصبية ، موحّدي اللباس ، الذين قادتهم معلمتهم ؟ أم تراه الفضول الذي راح ينخر قلبي مثل السوس مذ أكدت لي أمي أن ما في الكأس لحم يسوع ودمه ؟ لا أدري !

لحقت أمي ووقفت خلفها ، وطوال انتظاري كنت أسعى لرؤية ما في الكأس . تطاولت على رؤوس أصابعي وتطلعت ... كانت الكأس أعلى من قامتي . حدّقت في الملعقة وهي تخرج من الكأس .. فما لمحت شيئاً ، لأن الشفاه كانت تندفع في الأطباق على الملعقة واختطاف السرّ منها .

عندها ، فقدت شجاعتي الطارئة . فتململت أنوي الفرار من صف الواقفين ، التفتت أمي ، صدفة ، وضمّت كتفيّ ، وقدّمتني عنها . لحظتها ، ما عدت أقوى على الرفض أو التردد . صرت أمام الكأس . في مواجهة السرّ الرهيب . وجهاً لوجه . لا مناص .

انحنى الكاهن ليطال فمي ، فتعربشت عيناي على حافة الكأس ، وأطلّت : سائل أحمر ، غامق تطفو عليه قطع صغيرة مختلفة الأشكال . غمس الكاهن الملعقة ، ملأها ، وقرّبها من فمي بعد أن وضع طرف الوشاح تحت ذقني . شعرت بالغثيان ، فأغمضت عينيّ وخوفي ، مستسلماً لراحتي أمي الدافئتين تحت إبطيّ ...

حتى لنفسي ، خفت أن أبوح !

خفت أن أكفر لو قلت : بلى ! ان تسمعني الملائكة ، أو تضربني أمي ، أو يزعل يسوع منّي !

لكنّه بلى ... وإلى أن تقوم القيامة ، سأظل أذكر الطعم . الطعم

نفسه ! والرائحة ذاتها ! طعم النبيذ الأحمر الذي اعتدنا شرابه ليلة رأس السنة . رائحته التي تفوح حين يصبّ أبي في الكؤوس ، ويرمي ليرتين فضّيتين مغسولتين ، فنفرح ونشرع في سباق الشرب لنفوز . ثم طعم الخبز المبثوث في شاي الصباح تشبه طعم القطع الصغيرة المبثوثة في الكأس ، تشبهها إلى حد هائل !

عدت خلف أمي وأنا أتلمظ شفتيّ . همستُ :

ـــ أمي ...

ـــ نعم يا جورج ؟

شردت عنها متطلعاً في وجوه المصلين : « هل يحسون بالطعم الذي أحسّ به ؟ هل يخافون هم أيضاً يسوع لو قالوا ؟ » ثمّ شددت ثوب أمي ثانية :

ـــ أمي ...

ـــ نعم .. نعم .. ما بك ؟

وأخذتني الكنيسة . عيون القديّسين لم تكن ترنو شاخصة إلينا كما رأيتها ! وجوههم مطرقة ، كابية ، وألوانها باهتة ، جرداء ! رائحة البخور بدت خانقة ، منفّرة ! الجوقة ترتّل بتراخ ممل ! عكاز المطران تشبه قضبان الحديقة قرب دارنا ! والصولجان المصدّف المذهّب على رأسه لا يقطر دماً مثل اكليل الشوك على رأس يسوع !

ـــ أمي ...

ـــ هه .. ما بك ..؟ صرعتني ؟

سحبتني من يدي ، وهممنا بالخروج مع المصلين ، فيما كان خادم الكنيسة يطفىء الشموع ويرتبها في طبق خشبي الأطول فالأقصر فالأقصر . وآخر يعدّ النقود الكثيرة المتجمّعة . والكاهن داخل الهيكل ، يخلع ثوبه الفضفاض فيظهر بنطاله البني المهترىء .

خرجنا . وفي الطريق سألتها :

ـــ أمي ... شو في بالكاس ؟

رفعت حاجبيها مستغربة :

ـــ يا جورج كم مرة قلت لك ؟ دم يسوع يا حبيبي .. دمه وجسده الذي .....

وإذ طفقت تشرح وتؤكد .. وجدتني ، وأنا أتلمظ شفتيّ ، أتطلع إليها مشدوهاً ، فيما مشاعر مختلطة ، غريبة كل الغرابة ، لا عهد لي بها ، وأفكار كبيرة وثقيلة على رأسي الصغير تنتابني كطفح وأحار كيف أخفيها ..

آب /١٩٨٩

النحنحات

لم يكن سعاله ، الذي تناهى إليّ من الزنزانات الداخلية عبر البهو المعتم الضيق ، ليلكز اهتمامي بأكثر مما يفعله وقع انصفاق باب أو سقوط وعاء رنان على أرض صلبة ... لولا أن ما تلا بدَّل معنى الحادثة العابرة ، ثم أكَّد دلالتها !

فبعيد السعال الذي تدفق من جوف البهو ، حاداً متتابعاً .. انتابتني ــ صدفة ــ نوبات سعال متتابعة ، أقل حدة ، ما كادت تهدأ حتى لحقتها نحنحتان : «إحم .. إحم» بدتا لي مفتعلتين ، ليس فيهما أثر لسعال حقيقي كأنهما تصدران عن فم لا من جوف أو حلق .. فجرّبت ــ تباعاً ــ نحنحة قصيرة منغمة بتساؤل : «إحم ؟» ، وإذ بي أتلقى نحنحة مماثلة ، دون تنغيم ، مفعمة بتأكيد وقصد وكأنها تردّ تحية لتحية !

«يهتف لي إذن ! ولكن .. من يكون ؟ وماذا يريد من نحنحاته ؟ يعرفني !؟ هل هي إشارة منه لم أفهم معناها؟» سللت مسماراً ، كنت خلعته من باب زنزانتي الخشبي ، ورحت أتطلع من دائرة الضوء الصغيرة ، السجّان غائب . أعدت المسمار ، وأطلقت نحنحة لأتأكد أكثر ، فتنحنح يؤكّد ظني ! تنحنحت كرة ، ففعل .. وأعدت ، فأعاد !!

فجأة ، كبرت الزنزانة . كأن النحنحات صدَّعت جدرانها ، فانسلَّت حزم ضوء إلى هذا المعتم الصامت . فرحتُ بالضوء ، وخفتُ أن

يغيب فتمطيت صائتاً .. فصات كأنه يتمطى !

وأمسكنا اللعبة ...

هو من طرفها الذي يتناهى إليّ غائراً من تلك الزنزانات القابعة في جوف البهو ، وأنا من الطرف الآخر في زنزانتي التي تواجه مدخل البهو .

وعبر المسافة المجهولة الظلماء بين زنزانتين رحنا نشدّ ، من وقت لآخر ، حبل النحنحات . أرقب السجّان وأنحّ ، فيطمئن وينحّ .. ونواصل لعبتنا التي لوّنت هذا القاتم من الصمت . كسرت رتابة أيام تزحف وتكرّ مثل حبات السّبحة . آنست وحدتي فلم أعد منفرداً ، وربما فعلت ذلك معه أيضاً .

ومضت أيام لهو كثيرة أذابت فيها وحدته وحدتي ، وصارت روحه لصيقة روحي . وما كان لعبة لمجرد كسر الصمت المفروض الخانق ، صار شاغلاً حلواً . متعة انتظمت بصورة مدهشة في أبجدية قليلة أشاعت قرباً ودفئاً حنوناً وتواصلاً يروي القلب الذي جففته الجدران الكتيمة والفراغ الكتوم .

ولم أكن أدرك أي بوح عميق مفعم يختفي خلف الأصوات حتى عشت تلك الأيام من النحنحات مع صديقي المجهول . فمن نحنحاته صرت أحس بهمومه وبهجاته وأحزانه . من تهدجها أو رخاوتها .. من اندفاعها أو ترددها .. من صدورها محزوزة مجروحة أو قوية مشبّعة .. من الآه والآخ التي يطلقها آخر النهار .. بات قريباً من قلبي .

وبسبب من الحظر المشدّد على أي كلمة أو نداء من المعتقلين ، لذّت حيلتنا وطابت ! فرحنا ننوع أصواتنا ونبحث عن مفردات جديدة نضيفها إلى «لغتنا» المكتشفة .

أشركنا التثاؤب الطليق الصائت للتعبير عن ملل أو الاعلان عن رغبة في النوم .. وافتعلنا العطاس القوي لايقاظ الآخر .. حتى أننا أدخلنا

المزاح أيضاً إلى لغتنا الخاصة الجديدة !

كنا ، بعد كل توزيع للطعام ، نتسابق في إطلاق نحنحتين ممطوطتين مغناجتين إيحاء للآخر بأن نصيبه ألذّ وأوفر ! وغالباً ما كان يسبقني في النحّ ، فأغتاظ وأبادله نحنحتين مثيلتين لا للذّة في وجبتي أو وفرة فيها .. بل لأردّ له الصاع وأغيظه أيضاً !

ولأيام قليلة ، قبل أن يحدث ما حدث ، كنت أحاول أن أراه . أن أوسّع الثقب ، وأتفق معه بنحنحة مشيرة على لحظة خروجه ، وأراه ، فلم يبق من صداقتنا ما تتوّق إليه إلا العيون . لأننا بتنا معاً ، أشبه بكفيفين تجمعهما زنزانة واحدة دون أن يدريا . وبتنا إن تأخر أحدنا أو تلكأ ، نحّ الآخر عجولاً .. وإن سها ، وقلما يسهو ، تُنبِّهه نحنحة عاتبة !

هل سهوت يومها عن النحّ بشارة الأمان ؟! هل تأخرت في المراقبة وطمأنته ، حتى بادأني إلى إطلاق نحنحات عاتبة غاضبة ؟!

لم أنخ حين سمعت نحنحاته . عاجلت إلى سحب المسمار والتطلع من الثقب ، ففوجئت بالسجّان منحنياً يتلصص ، وقد توارى معظمه خلف باب البهو . إرتدت فزعاً ! ظلت نحنحات صديقي تعلو وتتلون وتتغير . عاودت التطلع .. فلمحته يخطو منحنياً متلصصاً . دفعت حنجرتي لتنحّ ، فأحسست بها خوراً ! حاولت وحاولت ... لكن الدوران العجول لمفتاح السجّان سبقني في كتم نحنحات صديقي . ثم .. كما يُشَقّ ثوب على دفعات ، دوّت ارتطامات اللحم على اللحم ! أزّت ، وتلاطمت ، وتتابعت ... ثم ران ما يشبه الذنب أو الخديعة على عينيَّ !

آب السجان . ومع كل خطوة كان يؤوب بها ويناًى .. كنت أنزلق في وهدة ألم حزين واجف . بعدها ، ران صمت . صمت أم أسمع مثله يوماً مذ دخلت الزنزانة . كزرت على أسناني وأنا أنهض من وجيفي الأليم نحو الثقب : دائرة ضوء فارغة . بلعت ريقي ، وتنحنحت ..

ارتطمتْ النحنحات بالصمت وارتدتْ ! أطلقتُ نحنحتين منادياً . ثم أعدت .. لم يجبني ! كررت راجياً .. فأحسست بنحنحاتي تتهاوى واهنة ضعيفة . عاودت منادياً ، ثم متسائلاً ، ثم مازحاً كما في أوقات الطعام .. غير أن صوتي بدا أشبه بنباح جرو وليد لفحه الجوع والزمهرير .. جرو يصوِّت في بهو معتم ضيق فلا يُسمع غير رجع صداه الخوّار المفرد !

وكما تُطبق قوقعة على عتمها ، انسحبتْ حزم الضوء من زنزانتي ، وأطبقتْ جدرانها على جسدي البارد ، البارد .

تموز /١٩٨٨

الصقيع

ـــ جد ؟!

سألته بصوت مقضوم ،وتطلعت الى عينيه فرأتهما عكرتين .. عاودت ،لتبدد خوفها الذي شبَّ فيها :

ـــ غسان .. لاتمزح . جد ما تقول !؟

تنهد ، ثم قال مستسلماً :

ـــ بلى .. هذه المرة لاامزح

جالت في ملامح وجهه ، تبحث عن نأمة أو خلجة تكذّب ما سمعته .. فلم تجد غير ابتسامة مرة على شفتيه . حاول ضم كفها بكفيه لتهدئة روعها :

ـــ سلوى .. سأحكي لك القصة كلها ..

ردت يدها كأنها مست جمراً :

ـــ وهناك قصة تقولها أيضاً ؟!

لف كتفها .. فتبرّمت وهي تحدق إلى عينيه حائرة قلقة .. غير أنه شدّها اليه ، وتابعا السير معاً ..

كانت الطريق منسابة في العتم ، وملفعة ببرد قارس . محفوفة بشجيرات مسيجة كأنها اصطفت لتشهد اليوم الأخير في حياتهما . ولم يكن قمر ولا نجوم . سيارات تعبر بين فينة وأخرى ، تضيئهما لحظة .. ثم ينغمسان في العتمة ثانية .

ـــ سلوى اسمعيني .. وبعدها قولي ما شئت ..

سلّت كتفها ، فأحست بصقيع مداهم في موضع يده . سألته بصوت أبح :

ــ ولِمَ لم تقل لي ؟ أقصد لِمَ لمْ تخبرني قبل اليوم !

عاود ضم كتفها إلى صدره ، فسكنت لأوبة الدفء ، ومشت معه ..

ــ حتى لانعيش شهوراً من الوداع . لا أنت تحبين الوداع ولا أنا .. فلم أخبرك ؟ أعني .. لِمَ أخبرك قبل أيام أو شهور من سفري ؟ حتى نندب حظنا وعمرنا ونموت ألف ميتة ونلعن الدنيا.

التفت اليه :

ــ طيب فهمت .. ولكن ماذا يعني أن تسافر !!

ــ لايعني شيئاً . يعني الى متى ؟! بصراحة ، كما قلت مرة ، الى متى نظل نلتقي في الشوارع والحارات مثل اللصوص ؟ فكرتُ قليلاً وكثيراً .. قلبت الدنيا واعدت بناءها .. فلم أصل الى نتيجة ! حالنا ستظل على ماهي عليه . من ثلاث سنوات والى اليوم ونحن نلوب دون فائدة ، دخلي ودخلك لايكفيان خروفين .. فكيف سنعيش معاً !! بل فكري ما ..

قاطعته :

ــ لكني لاأحدثك عن العيش

ــ ياستي أنا الذي أحدثك عنه ..!

قالها بعصبية ،فبدا لنفسه غير نفسه .. وبدا لها كأنه غير غسان . رمقته معاتبة ، فغضّ بصره وهما ينعطفان الى طريق مضاءة . تطلع اليها فلمح شحوباً وحزناً في وجهها أطبقا على صدره . بابتسامة حاولت اخفاء حزنها .. غير أنها مكّنت فيه احساساً مريراً بالذنب جعله يعدل عن مواصلة كلامه . أوقفها بلمسة حانية من يده ثم استدار نحوها وباح لها بصوت مكسور :

ـــ ما الذي سأفعله ياسلوى ؟ وكيف سنستطيع العيش ومواجهة الأيام التي تكرّ من لعنة الى لعنة ! قولي لي ...؟.. لاتحرقيني أكثر !

ـــ ياغسان .. وما الذي ستفعله هناك ؟! هل تظن انهم سيقدمون لك جنات عدن ؟ يفتحون لك أبواب بلادهم لتحقق أحلامك ؟ يأخذونك بالأحضان ؟ ثم هناك العيش ليس أفضل من ...

ـــ بلى .. أفضل من أن أموت هنا وكما يحلو لهم !!

قالت بنبرة ساخرة :

ـــ وكل هذه الأفكار الحلوة جاءتك بعد أن نويت السفر ؟

نخزته سخريتها ، فأمسك بكتفها وراح يشير الى الأبنية العالية المحيطة بالشارع حولهما :

ـــ لاأفكار حلوة ولا بشعة ! ببساطة ، أترين الى كل هذه .. ما الذي نملكه منها ؟! ها ! قولي ! اتركيني من التنظير كرمى لربك ! كثير علينا غرفتان وحاجات بسيطة نعيش بها ! كثير علينا أن يكو ....

ـــ وأنا ...؟

كأنه سها عن شيء وذكّرته به . اضطرب قلبه وانكمش جسده كما لو أنها ، في عز الصقيع ، غطّسته في حوض من الثلج .

ـــ أنتِ ؟

التفت اليها وأحاط كتفيها :

ـــ أنت تعرفين أنك الدنيا كلها بالنسبة لي ... السندويشات . والأفلام الحزينة . وتين البعل . وطريق الربوة . وبيوت القصب . والبوظة . والقبلات المسروقة . العوجة . وحصى النافذة والانتظارات . والضحكات ، الضحكات . وحتى المشاجرات وأيام الزعل . أنت ياسلوى ؟

أحاطت خصره ، ووكأت رأسها الى كتفه فأحست به قوياً مفعماً

بالدفء . وأحست أيضاً من التصاقه بها وأصابعه المشدودة على يدها ولحظات الصمت التي دخلا فيها للتو .. أن عزمه على السفر قد ضعف أو تراجع ، فأضافت لتؤكد لنفسها :

ـــ وكلها تبيعها ببطاقة سفر ؟

من أصابعه التي تراخت عرفت الجواب قبل أن يقول :

ـــ روحي هي التي زهقت ياسلوى . أنا لم أبع ولم أشتر . هم . هم حاصرونا . وحياتك لاأنظّر ولا أتفلسف . حاصروا الناس ليلتقوا لقاءات أخيرة . يعني كيف أقول ! البلد صارت .. صارت مثل جهنم طيب .. ولم المكابرة ؟ كم طلبوا منا آجار البيت في آخر المعمورة ؟! أبو حسن الدلال ماذا قال لنا !؟ أم يحيى .. تذكري .. كم مرة وعدتنا !؟ أما ذهبنا للطبالة ؟ وعين ترما ؟ وكنا ..

ـــ أعرف .. أعرف ولكن ..

لا .. لحظة . كنت معي حين سألنا عن تخت الحديد ، كم طلبوا ؟! الطنجرة والصحون و الملاعق ؟ خزانة الصاج ؟! كراسي الخشب ! هل أذكرك ؟! أنت قولي ، كم ضحكت يومها حين جلسنا نحسبها ؟ قلت : والله لابد أن أتزوج أربعة رجال فوق راتبي حتى أستطيع العيش في بيت ! أليس كذلك ! أهلك تعساء وأهلي أكثر تعاسة .. يعني ...

تبسَّمت ، فانجلى شحوب وجهها ولمعت عيناها . ضمها الى صدره وقبَّل عنقها وكاد ، حين نترت جسمها :

ـــ مجنون ..!؟ نحن في الشارع !

أوقفته تحت عمود مصباح أصفر ، فغمرتهما غلالة من لون شاحب . واجهته بجسدها كله ، ثم أحاطت كتفيه وحدقت في عينيه :

ـــ غسان .. قل لي ، أتمزح ؟

أغمض عينيه ، فساورتها فرحة صغيرة . لكنه كان يشعر أن الأرض تغور تحت قدميه .. تموج وتتجوف وتدور .أسند ظهره الى العمود ، فغالبها قلق جديد . انكمش صدره وارتخت ركبتاه ، ثم راح ينزلق حتى وصل الأرض ، قرفصت أمامه ومسحت شعره ، ثم همست من خوف :

ـــ غسان ..

مد يده الى جيبه ...

لو أنه أخرج عقرباً أو أفعى ، لما فزعت كما لحظة رأت بطاقة السفر . أنهضته ونهضت . لبرهة ، كانت تظنه يمزح . خمنت أنه في نوبة من نوبات كآباته وحزنه . طفرة وجع وضيق .. حالة من حالات جنونه التي اعتادت عليها وأحبته بسببها .

ـــ غسان ...؟!.

ندهت تهزه من كتفيه ، فبكى . كأن عينيه كانت تنتظران هزة واحدة . بكى ثم راح ينشج . انخطف قلبها واكتسى وجهها لون الليمون . ندهت من وجع وجيع .

ـــ معقول !؟ العمر أقصر ياغسان ! وأنا !؟ نسيت ! اتركني أنا الخبز المعروك في الصباح ! والعليّة وقهوة النوفرة التي تحبها ! ماذا أقول ! ياإلهي كم أنت مجنون ! صدقني أنه . طيب .. أصدقاؤنا ! الشباب ! والدنيا ! من كان يضرب المثل بأمجد ! ألست أنت ! هو أكبر شاهد .. اسأله ! اسأله ماحدث معه هناك ! عجيب منذ عام قلت لي .. أعني ، اذا سافرت أنت من ..؟ الا اذا .. على كل ، ما الفائدة الآن ما الفائدة سافر . سافر كما ..

لم تبك . صوتها وحده كان يغور ، ويطفو . يتمدد ويختنق . ينسحب من دهشة ويعلو من تساؤل . وكان هو قد كسره الصمت . خطفه بعيداً . وبدا الشارع مغتالاً بالليل والصقيع . ينساح في الوحشة

والسكون والوجل .

من آخر شجرة اتكأا عليها ، وحتى باب بيتها ، ظلا صامتين . كأنهما طفلان ضائعان . تشده من خوفها ويشدها من وجعه . متلاصقين عادا كما لو أن موتاً يلطأ عند باب البيت . وعند باب البيت أفلت يده ، وانسحبت .

بغتة ، عندما أخرجت المفتاح ، نَدَهَ بصوت جافل كمن تذكَّر أمراً .

— سلوى ...

نهدت اليه ..

وقفا متلاصقين ساكنين كأنهما ينتظران . هو تختلج شفتاه من رغبة تخبُّ فيه ويغالب البوح بها .. وهي تلتمع عيناها بوميض لهوف دافق .

تشرين الثاني /١٩٨٨

ساعة الظهيرة

أقرب إلى رشقة من ماء بارد .. تكون ساعة الظهيرة تلك ! فآن تئين ، تتغلغل الحركة إلى الزنزانات وتنتشر ، كما لو أن أحداً قد أُخلي سبيله ، وتنطلق من السجناء همهمات ونحنحات وتلمظات كأنها كانت منذ الفجر متخفية تنتظر ، ويختلط بعضها مع بعض ، ليؤلف من اختلاطه وفوضاه ضجيجاً عذباً ، شهياً ، بل ومنعشاً على الخصوص ... منعشاً لأرواح كنت تخالها ، إلى حين من الضجيج ، إنها فارقت أجسادها دون رجعة لشدة تجمّع الصمت وتزاحمه !

وسوى ساعة الظهيرة تلك ، يبدو كل شيء لابداً طوال اليوم . سكوت معشّق بالتخيلات الخرساء ، وأحلام تلتف على انكساراتها ، وانفراد ليس ما يلهو به غير وحدته ... حتى تأزف الساعة .

وقد آنت الآن .

فما أن قرقعت الطناجر والصحون والملاعق في المطبخ المجاور ... حتى سال لعابي ، فاستويت أتلمظه وأنا أصغي إلى المعزوفة الشهية التي يحدثها السجانون في جلبتهم ظهيرة كل يوم ، قُبيل توزيع الطعام على زنزاناتنا أولاً بأول .

ولكي أحتال على جوعي — بانتظار انتهاء الأرقام الثمانية التي تسبق زنزانتي — رحت أتلهى ، على عادتي كل يوم ، بتسوية البطانيات وإزاحة أطرافها لإفساح حيّز أشكّل منه ما يشبه مائدة إسمنتية مستطيلة تقبع أسفل الحائط ، ثم أبدأ بجمع الغبار ولمّ نتف الخيوط المتناثرة ... حتى إذا

ما انتهيت ولم يصل دوري ، ركعت متحفزاً ، على ركبة واحدة ، وسارحاً قليلاً في تخيل نوع الطعام لهذا اليوم ، فيما يلوك فمي مرارته وجفاف حلقي المتجمّع طوال نصف النهار ...

« ما غداء اليوم يا ترى ؟ برغل ؟ لا ... البارحة وزعوا برغلاً ولبناً .بلى . وأول البارحة كان الغداء رزاً وفاصولياء يابسة . وقبله ؟ هم م م . قبله كان .. ماذا كان ؟ صحيح .. ماذا كان ؟ هه ، فطنت .. لابد اليوم أن يكون .... »

انتهرني الصوت المثلوم :

ـــ تسعة .... !

هببت واقفاً .. فصدم وجهي الرغيف المقذوف من كوة الباب نصف الدائرية ، ثم ارتطم بالجدار وسقط . تناولته أتفحص حظي من الخبز : « العمى .. عجين خالص ! يعني لو كنت خبّازاً لما كان نصيبي بهذا القدر من العجين» . قلبته أبحث عن طرف ناضج : « هه .. قفاه أفضل من وجهه » ركنت في الزاوية ، وأخذت أنتش ما نضج من أطراف الرغيف المدور المقبب كي لا أضع لحظة بعد بدء الأكل ، وتركت أذنيَّ تلاحقان وقع خطوات السجان الذاهبة الآيبة .

ـــ تسعة ... !

فردت ساقي ، اتكأت على الأرض ، ووقفت :

ـــ أصابك الطرش يا كر ... ها ... امسك !

سللت الصحن المعدني وأنا أحاذر اندلاق رخوه وقد أحسست بجوعي يفيض إلى فمي . ركنته على المستطيل الاسمنتي ، وجلست : « قرنبيط بعصير البندورة أيضاً !! من اخترع هذه الأكلة اللعينة ؟! » قرّبت وجهي .. فهفّت رائحة غريبة ، خانقة ، قطّعت أمعائي ! أشحت عن الصحن ، وسندت رأسي إلى الجدار ... فلاحقني الفوحان الكريه ، المنفر ، الوخاز ، مثل رائحة فساء أو بيض فاسد !

ملأت الرائحة جوَّ الزنزانة ، فاستسلمت لها علّي أستطيع مقاومة جوعي الأرعن .. لكني ما استطعت . كان الجوع ينهشني ويفتت قواي . أمسكت الملعقة ورحت أحاول استدراج شهيتي بتحريك السائل .. لكن هبات البخار الجديدة أغلقت فمي حتى صار مثل مغارة انهارت حجارتها في حين بقي جوعي يرغي ويلوب !

تركت الملعقة على طرف الصحن ، وأرجعت ظهري إلى الحائط ، ثم أغمضت عينيَّ ، وسرحت ....

أضاء البيت في ظلمة جفنيّ وكأنه يتواطأ مع شهيتي الهاربة : « بخار الشاي الساخن ... أرض الدار المنفسحة .. رشفة خلف لقمة زيت وزعتر .. خلف رشفة ورشفة .. لذع السخونة .. تكوّر حبات الزيتون الأسود ولمعانها وانزلاقها بين اصبعيّ .. اللبن المصفى والنعناع .. كيف كنت أغضب لو تأخر الطعام قليلاً ، أو أنفر لو كان فاتراً .. أشمئز من بياته يوماً ، وأستاء لو كان مالحاً أو قليل الملح .. وكيف كنت ... »

ثم ، مثل حلم خاطف ، رأيت أكواماً من الأرغفة المحمّرة الطازجة ، تتوسطها أطباق ملوّنة ، فائرة باللذة والمتعة ، تعبق منها روائح شهية ، متداخلة ، نفّاذة .. سرعان ما تحوّلت إلى فمي ونبّهتني . فتحت عينيّ ، فأحسست بلذّة حقيقية تملأ فمي !! لذّة ، مداهمة غامضة ، من قطعة خبز يبدو أنني دفعتها ، شارداً ، إلى فمي . دفعت قطعة أخرى ، ورحت ألوكها في غمرة تكتكات ارتطام الملاعق بالصحون في الزنزانات المجاورة ، ارتطاماً متلاحقاً متنافراً ، عجولاً ، ومقبّلاً ... ففاضت شهيتي !

ووجدتها فرصة . اقتربت من الصحن ، صالبت ساقيّ . أخذت الملعقة ثم هممت بالأكل بعد أن أجهز الجوع علي . لحظتها ، عصف نداء السجّان فوق رأسي راعداً :

ـــ تسعة بيك ... ! أما انتهينا بعد !؟

رفعت رأسي إلى الكوة ، مبقياً على الملعقة في قعر الصحن ، فلمحت وجهه المكفهر وقد سدَّ الكوة تماماً :

ـــ لحظة .. لحظة واحدة وأنتهي ..

فتح فماً غطى نصف الكوة :

ـــ لحظة تأخذك ! قم ! هات الصحن .. قاعد بالغوطة .. ها ؟!

أفلت الملعقة ، ورفعت الصحن ببطء متردد ، ثم نهضت خلفه أشيّعه ... في حين كان جوعي يتمدد على مساحة الزنزانة الضيقة ، الضيقة ، بانتظار ساعة الظهيرة في اليوم التالي . □

شباط /١٩٨٨

الهاجس

لأن النافذة الغربية لغرفة الأولاد تطل على موقف الباص ، فقد التصقت بها لاتبرحها ، وكأن وقوفها هناك ، قرب النافذة ، سُيحضر زوجها من غيابه المفاجيء ويبرِّد قلبها المحروق بنار الأنتظار !

دخل يحيى مثل هبة ريح يلهث قائلا :

ـــ أمي ..... أمي .... ليس في بيت أبي عادل

سألته دون أن تلتفت اليه :

ـــ وبيت حسين عبد الباري ؟

ـــ سألتهم أيضاً ، قالوا لم يروه اليوم ...

عاودت ، وعيناها تجوبان الشارع المكتظ بالضجيج والسيارات والعربات والناس :

ـــ وبيت عمتك ؟

ـــ أمي !! كم مرة سألتني وقلت لك أنني سألتهم !؟ والله العظيم لافي بيت عمتي ، ولا في بيت عمتي الثانية حمدة ولا في بيت عمي ... كلهم سألتهم وقالوا أنهم لم يروه ... ألا تصدقين ؟!.

ـــ طيب ... طيب. والتفتت اليه : تعال. حضنت كتفه : إسمع . أريدك ، مثل الطيارة ،أن تذهب الى بيت خالك وتفهم منه إن كان قد ات..... ثم غيرَّت رأيها : لا ... إسمعني ... قل لخالك أمي تريدك حالا . اترك كل شيء وتعال . قل له أمي على نار . فهمت ؟ عجِّل ولاتتأخر . وحين سحب ابنها كتفه وانطلق ، صاحت خلفه : مثل

الطيارة يايحيى . أنا بانتظارك .

وأرسلت عينيها نحو الشارع ثانية ...

راحت تبحلق بالناس المارة . تحدّق بالسيارات . كلما توقفت سيارة قفز قلبها من النافذة ليتأكد ممن في السيارة ثم عاد مكسوراً خائباً . ومع كل باص يصل الموقف تمطُّ عنقها وجذعها ، تمعن في النازلين واحداً واحداً وحتى واحدة واحدة : «أين اختفى ؟! أين يكون الآن ؟ لِمَ كل هذا التأخير ؟ ماالذي حدث له ياترى ؟!». جرَّت صباح اليوم الى ذاكرتها : «لم يقل لي أنه سيتأخر ! أفقنا كعادتنا، شربنا القهوة، لبس ثيابه، وقبل أن يخرج... صحيح ! تذكرت ! قبل أن يخرج سألته.بلى سألته : هل ستتأخر اليوم ياأبا يحيى ؟ ساعتها ضحك من قلبه : ياأم يحيى ، ألا تتركين هذه العادة ؟! والمخزن بعد الدوام !! أعرف ياأبا يحيى بأنك لاتستطيع التغيب عن المخزن.. ولكن ليطمئن قلبي.ولحظتها نكَّس رأسه وحدَّجني بنظرة من تحت نظارته : اي يسلم لي قلبك ان شاء الله ! ثم ضحكنا كثيراً ، وعندما همَّ بالخروج لحقته : إذن لاتنس ... سنأخذ الصغير الى الطبيب بعد أن تعود» .

توقفت سيارة إجرة صفراء قرب الرصيف . أمعنت النظر في الشخص الجالس جانب السائق.. فغرَّد قلبها. كادت تناديه.. غير أنها امتنعت في اللحظة الأخيرة حين تأكدت ، لحظة خروجه ، أنه ليس هو : «أين ذهب ؟ ست ساعات ! لو كان مسافراً لآنت عودته ! إلا إذا كان ...» .

وراحت تكلّم نفسها . يغيب الشارع وماعليه أمام ناظريها ، لتتوالى صور ومشاهد وحوادث رأتها أو سمعت بها ، مُفزع بعضها ، ومدمى بعضها ، وغامض بعضها الآخر . والشكُّ يولّد الشكَ . يفرِّخ التوجسُ توجساتٍ صغيرة سرعان ماتنمو وتكبر لتفرِّخ بدورها وتملأ

رأسها !

قُرع الباب . فرَّت الصور من رأسها ، وانخطفت لتفتحه .

ـــ أخي ،لِمَ تأخرت ! تعال.

سحبته من يده نحو النافذة :

ـــ ها. قل لي . هل عرفت أين هو ؟

ـــ هدِّئي أعصابك . الغائب عذره معه .

ـــ أي عذر ! ست ساعات ! المشكلة ليس من عاداته . لو كان مشغولا لهتف لك . هل هتف ؟

ـــ لا. أنا هتفت لمقر عمله ..

ـــ وماذا قالوا ؟

ـــ قالوا لي كلهم خرجوا ..

ـــ والمخزن ؟

ـــ استغربوا واحتجوا على غيابه . ولاأخفيك ، اتصلت بالمستشفيات ...

جمدت عيناها واضلاعها وانفاسها :

ـــ هه ...؟!

ـــ قالوا ماعندهم هذا الاسم ..

قالت من يأسها :

ـــ لم يبق غير الشرطة إذن !

زفر من ضيقه وحيرته :

ـــ ياستي فكرت وحاولت . ومن قال لك انني لم افعل ! أصلا من البداية رجوت صاحبي النقيب ولم يقصِّر الرجل . إتصل واستفهم هنا وهناك .. ولكن دون فائدة !

تسلل هاجس جديدة الى هواجسها فتحولت الى كتلة من فزع ..

ـــ والمعنى !؟!

لأنه كان يعرف أنها ستصل الى هذه النقطة في حوارهما، فقد سارع الى القول : «لاتستعجلي» ثم صمت يحك أرنبة أنفه ، يمسح على فمه وجبينه ، ويدلّك عينيه ليعطي نفسه فرصة جديدة . ولأنها صمتت هي الأخرى ، فقد ظل تساؤلها الملغوم مقيما بينهما لايغادر . غير أنها من عينيه أرادت أن تعرف مايخفيه عنها أو يخمّنه في نفسه . من توهان حدقتيه واختبائها خلف جفنيه الرامشين .من قلقه الذي يحاول زجره بالتشاغل عبر تطلعه من النافذة ، فسؤال آخر وتقع فريسة اليقين . قالت تقطّع سؤالها الأخير :

ــ يعني ، تظن ، أنهم ...

ــ لا !

نبر يرجعها من الطريق الوعر الذي يتجه اليه تفكيرها ، ويرجع نفسه أيضاً . فكلاهما الآن أمام دروب يجهلانها . اضاف بلهجة الواثق :

ــ ليس بالضرورة . كبّري عقلك ! ألف عذر للغائب ! ألف سبب .

وبدا له أنها اطمأنت . تابع يقول :

ــ على كلٍ ، أبقي هنا . لن أتأخر . سأسأل عنه وأعود .

هل لأنه ترك سؤالها : «أين ستسأل عنه ؟» دون جواب ، أم لارتعاش أصابعه التي أحست بها على كتفها وانسحابه العجول ... عاودتها الهواجس كما تعاود الحمى المريض ؟!

لاذت بالنافذة من جديد ، وغابت في الليل الذي حضر . ولليل مخاوفه التي لاترى في النهار . وقد رأتها كلها. رأته يتشاجر ليحافظ على دوره في طابور الزيت ... ورأت أحدهم يدفع الناس المصطفين أمام الفرن ليحتل الدور الأول ، فيتصدى له «ياأبا يحيى ... طوال عمرك تبحث عن المشاكل ! أنا يا أم يحيى !؟ أنا أبحث عن المشاكل أم هي التي تلاحقنا وتدوس على كرامتنا ولقمة عيشنا !!؟» ورأته مسجى أمام عجلات سيارة

هائجة ... ثم سمعته يزل بكلمة ،فلامته «ياأم يحيى ... واحدنا ، أحيانا ، يكفر بحياته ... حرام ، من ضيقه ، لو حكى كلمة !!؟» رأته ،وسمعته ، واحست به كما لو أنها ، معه ، في غيابه . ضاقت الدنيا في عينيها ، فلم يبق لها غير الرجاء . راحت تتوسل من فرط خوفها : «ليته يكون في مقهى ... في ملهى بل ليته يكون مع غيري حتى ... في أي مكان ... المهم ان يستطيع العودة وقت يشاء ...» .

ـــ أمي..!!

جفلت من النداء . التفتت :

ـــ مات أخي سعدي من البكاء !

فطنت لابنها الصغير . جذبت يحيى نحو النافذة :

ـــ إبق هنا. إن جاء أبوك صح لي .

وفزعت الى الصغير . وجدته يبكي وقد سقط عن السرير . رفعته . هزت له . ناغته . ربتت على ظهره ... لم يسكت . ظل يبكي ، كأن بكاءه يسابق قلقها . امسكت به من زنديه ورجَّته ليسكت مرغماً ، فازداد بكاؤه حتى صار زعيقاً. ركنته على السرير واعطته الرضاعة : «يسرى ... انتبهي لأخيك» ، وعادت الى النافذة .

ـــ يحيى . إذهب الى بيت خالك وأخبرني إن...

صرخ ابنها محتجاً :

ـــ ياأمي انكسرت رجلاي !

وصرخت دون وعي :

ـــ وأنا انحلَّت رجلاي وانكسر ظهري ! ماذا نفعل ؟! ها ؟ رح اسأل ان عاد خالك أو اتصل بهم.... هيا !

ذهب متذمراً متبرماً ! ونهدت الى النافذة : « العمى ! أية عيشة هذه ! ركض وجوع وخوف ! لاأمان ولاراحة !»سرقت نظرة الى ابنها الذي

تحول زعيقه الى نواح : «هزّي له يايسرى» ، ورجعت لهواجسها : «ياالهي ! مايحيرني أنه لايستطيع ترك عمله في المخزن ولاساعة ! كم مرة رجوته أن يأخذ اذناً من صاحب المخزن فلم يقبل ! كان يقول لي : مجنونة ياغادة ! أنا لو تركت المخزن يوماً واحداً لتخلوا عني ! طبعاً يتخلون عني ، لأن الف من يقبّل ايديهم وجهاً وقفا ليعمل مكاني ، إي أنا أعمل مثل الحمار عندهم وبالكاد يرضون بي ؟ أما أنك غريبة فعلاً؟!».

وحتى لاتقع ، وقد أحسست بالدوار ، اتكأت على حافة النافذة . ساح صبرها وتلاشى . ارتجفت يداها ، وتقطّعت انفاسها ، وانهارت قدرتها على الانتظار كبيت من رمل !

وقبل أن يتجمّع ابناؤها في عينيها ، وتتزاحم سنوات حياتهما الماضية ، وقبل أن يختفي الشارع والناس والسيارات والاشجار والأضواء الشاحبة ، صوت سعاله الحلو الذي تحب ، وقع أقدامه القوية على الدرج ، رائحته ، طعم كفيه الكبيرتين الخشنتين ، صدره المنفسح وقبلاته التي تشبه شلالاً يترقرق من رأسها الى أسفل قدميها... قبل أن يحدث ذلك بلحظات قليلة ، فرملت سيارة أجرة صفراء مقابل النافذة . فُتِحَ بابها ، وهبط أخوها بمفرده . صاحت بما تبقى فيها من عزم :

ــ أخي ... هل رأيت أبا يحيى... هل رأيته ؟!

لم ينتبه ،أو ربما انشغل بمراقبة الشارع وهو يقطعه ، فلم يرد.. ولم تنتظر هي .. صاحت :

ــ أين هو.... ! هل رأيته ؟! مابه ؟

ولم تنتظر أيضاً . دفعت النافذة ، وفزعت نحو باب البيت، متعثرة بالكراسي ، ولهفتها ، والمدفأة ، وخوفها ، وسرير ابنها الذي تحوّل نواحه الى نشيج ، وهاجسها الأكبر، ومحفظة يحيى المدرسية، وأملها الأخير ، ومزلاج الباب الذي لم تعد تعرف كيف تفتحه ...

نيسان /١٩٨٩

المرحاض*

* سمّيت القصة : المرحاض . ولكن حين نشرتها أول مرة عنونت ـــ رغماً عني ـــ بـ «حزيناً ... قرب النافذة» ثم عنونت في المرة الثانية ـــ دون علمي ـــ بـ «الخطة» ... تُرى ما به المرحاض ؟! ومِمَّ يشكو !!

أحكمنا الخطة جيداً . ربطنا كل جوانبها بدقة . وضعنا الاحتمالات الممكنة وجهّزنا حلولاً لها . أفدنا ـــ في خطتنا ـــ من السجناء القدامى .. خبرتهم ودرايتهم بموقع السجن .. حركة الحراس وأوقات المناوبة .. المسافة بين المهاجع العلوية وأقرب شارع عام أو نقطة يُسمح للمارة بالتجول بها . أما مسألة عضو الاتصال ، وكيفية نقل الخطة إلى الخارج ، واليوم والساعة .... فقد ظلت طي كتمان قلة قليلة من الموثوقين خشية تسرب الخطة ، وفسادها بالتالي ..

وفي جوّ الفراغ الذي يستطيل على امتداد أربع وعشرين ساعة داخل حصار يجمع أربعين إلى ستين رجلاً في مهجع لا يزيد طوله عن اثني عشر متراً وعرضه عن ستة أمتار .. فإن مجرد التفكير في تأمين شفرة للحلاقة ، مثلاً ، أو مقص أو صنع موسى من يد مقلاة بعد طرقها وسنِّها جيداً .... كان كافياً لأن يقيم دنيا سجناء المهجع ولا يقعدها بحثاً عن المصادر ، طرائق الاتصال بها ، أوقات الطرق والضجيج وأوقات الصمت ، أمكنة الاخفاء .. الخ الأمر الذي جعل من الضروري مضاعفة الحرص والاهتمام بموضوع كموضوع خطتنا يمكن ، فيما إذا انكشف أمره مسبقاً لادارة السجن ، أن تنسحب نتائجه الوخيمة على كافة سجناء المهجع دون استثناء ـــ المشارك في الخطة وغير المشارك ـــ بل وعلى أهالي السجناء في الخارج أيضاً !

ولذا ، فقد بدأ التفكير بالخطة ـــ أول ما بدأ ـــ بين اثنين ، كنت أحدهما فيما كان ثانيهما عارف الدوماني الذي اعتدنا على مناداته بـ

«العم» لكبر سنة وطول إقامته وهدوء انفعالاته .

في ليلة ــ وكان فراشي جوار فراش العم عارف ــ ضرب على فخذي ، فجفلت كمن يرشق بماء بارد وهو نائم . قال :

ــ «كفى يا رجل ..! اتخذتها عادة ! بماذا تشرد ؟!»

يومها ابتسمت محاولاً لملمة توازني . تابع بصوت رفيق :

ــ «أعرف . أعرف . لا تقل شيئاً . عام ونصف دون زيارة كافية لجعل الكمبيوتر يشرد !»

أومأت مصادقاً ، ثم جهدت في إظهار تماسك ما ، فقلت :

ــ «طبعاً ليس إلى هذا الحد يا عم .. ولكنك تعرف أن ..» .

قاطعني ضاحكاً :

ــ «اي نعم سيدي . وأنا قلت ذلك بعد مضي عام على اعتقالي دون زيارة . ولكن اسمعني الآن . مرَّ على رأسي الكثير في السنوات العشر الماضية . يعني بصريح العبارة لن تأتيك زيارة مهما طال توقيفك . والحكاية طويلة كما ترى . يعني طالما واسمك في التحقيق عندهم تيسير عبد الغني ، وهو غير اسمك الحقيقي ، فلن تتمكن لا زوجتك ولا أهلك من زيارتك يوماً» .

أحسست كما لو أنه رشَّ ملحاً على جرحي المفتوح ، فنزفت :

ــ «بالله عليك يا عارف دعني . لاينقصني ! وما الجديد الذي قلته ؟! يعني أفهم من كلامك أن أقدم طلباً للسادة أرجوهم فيه إعادة التحقيق معي وأقول لهم : يا جماعة الخير لا تؤاخذوني ، كذبت عليكم .. إسمي الحقيقي قصي الأسود وليس تيسير عبد الغني كما في الهوية المزوَّرة .... شرّفوا الآن وافتحوا زيارتي !!؟» .

أغمض عينيه ورفع حاجبيه أن لا . قلت أستوضحه :

ــ «إذن .. تعني أن أهرب ..!» .

ضحك ضحكة عريضة ثم قال بروية :

ـــ «هدّىء أعصابك .. ولا تستعجل . لو يجدي الهرب لما رأيتني هنا» .

بعدها انخفض صوته وحزمت نبرته :

ـــ «باختصار .. أفكر أن ندبِّر لك زيارة» .

ـــ «زيارة !!» .

ـــ «أي نعم . أعرف أن كل الأخبار التي تصلك عن أهلك من هذا وذاك لا ترويك . فإن لم تر العين يا قصي لا يصدّق القلب أبداً» .

ـــ «طيب .. ولكن كيف ؟ من فوق السطوح ؟!» .

ـــ «بالضبط» .

وراح يعرض خطته . ثم ، معاً ، أخذنا نتفحص طرائقها واحتمالاتها ومخاطرها !

★★★

كان المرحاض حجر الأساس في الخطة !

في صدر المهجع ، أعلى الجدار المقابل للباب ، نافذتان علويتان كبيرتان مقطّعتان بالقضبان ، هما المنفذان اليتيمان لتسلل زرقة السماء وحزم الضوء من الخارج . تبعد اليمنى منهما مسافة نصف قامة عن سطح مرحاض صغير بُني في الركن كيفما اتفق . ألواح بابه الخشبية مخلّعة ومتباعدة ، تبعث القلق في نفس المقعي فيه فلا تشعره بأي انفصال يذكر عن نزلاء المهجع ، ولا تتيح له فرصة للانفراد أو التخيل اللذين كثيراً ما شعرنا بالحاجة إليهما !

وإلى أجلٍ ، ظل سطح المرحاض العتبة الوحيدة للسجناء ، يطلُّون من فوقها على الدنيا ، موقظين ما قد يكون غفا داخل نفوسهم في حضن عتمة الجدران الأربعة .. إلى أن تنبّهت إدارة السجن فحذّرت ، وشدّدت ، وعاقبت مما أكره السجناء على التفكير في الاحتيال على

رغباتهم المندفعة بأن كوّموا الأغراض على سطح المرحاض بحيث صار فسحة مشاعاً لأوعية الغسيل والصناديق والحقائب والأحذية والأكياس وغيرها مما يتكوّم بعضه فوق بعض حتى ليكاد ، أحياناً ، يغلق الشبّاك ويخنق الضوء !

على سطح المرحاض قامت خطة «العم» !

قال لي أنه ، في أول زيارة قادمة له ، سيقوم بتسريب عنواني الكامل إلى أهله ، وكذا موقع شبّاك مهجعنا كما يبدو من الخارج ، ثم اليوم المحدد ، والنقطة الأقرب إلى موقع السجن من الشارع العام أما الساعة فقد فضّل أن تكون الثامنة صباحاً آن انشغال الادارة بتوزيع المناوبة على الحراس من جهة وسطوع الشمس على شبابيك المهاجع من جهة ثانية .

وأنهى شرح خطته بالقول :

ـــ «من جهتك يا عريس الزين فما عليك سوى صعود سطح المرحاض ومقابلتهم» .

خفض صوته وهو يلعّب عينيه :

ـــ «هذا هو الحل الوحيد لمقابلة أهلك والاطمئنان عليهم .. فما قولك ؟» .

سحرتني فكرته :

ـــ «ما رأيي !! ولا أحلى .. ومتى موعد زيارتك القادمة ؟» .

ـــ «بعد غد» .

وقبل غد ، نظّمنا كل شيء . أبقيت الموضوع طي الكتمان ، كما أوصاني ، إلى أن تحين الساعة . ثم قابل أهله ورتّب معهم وأخبرني ، ولم يبق إلا أن تحين الساعة .

★★★

انتصف ليل صباح الزيارة ، ولم يأو النعاس إلى جفنيّ !

عيناي ، مثل قنديلين ، تتأرجحان بين قضبان النافذة وسطح المرحاض . تسرحان وسط الليل الصموت بين أجساد لملمت انكسارات أحلامها ، وغفت . يتراصف بعضها إلى بعض في تزاحم زحوم تحت نافذتين كبيرتين تتطلع منهما زرقة السماء المسودّة دون أن تبوح أو تشي .

«من سيأتي غداً ؟» سألت الشبَّاك الصامت «هل تأتي أمي حقاً أم تراها ماتت ؟ وحتى لو أتت .. كيف ستراني من هذا البعد المقطَّع بالقضبان ..؟ ماذا تراها قالت سعدة للصغير غسان ؟ لم يعد صغيراً . كبر عاماً ونصف ، وكبرت سعدة ، وأنا أيضاً ! لا بد طار عقل سعدة حين أخبروها بالزيارة .. وطيَّرت عقل الصغير معها !» نَتَأَ همٌّ مباغت «ولكن .. كيف سأتفاهم معهم ؟!» .

لحظتها ، تمطى تثاؤب عارف وهو يستوي على فراشه . التفت مستغرباً :

ــ ألم تنم بعد !؟

ــ عم .. سأسألك .. كيف يمكن أن ...

ــ يا شيخ ! سألتني ألف سؤال . ماذا تريد بعد ؟! ست الحسن ستشرف وولي العهد والوالدة المحترمة كذلك وربما عائلتك كلها والجيران وسبع حارات بعد حارتكم .. إرتحت الآن ؟!

قَفَزَ عن العتبة الاسمنتية نحو المرحاض . سقسقت المياه ، ثم خرج . عاد والتحف البطانيات .

همست أحاذر نزقه :

ــ قصدت أن أسألك كيف سأتفاهم معهم ؟

جحظ وهو يبتسم تكلفاً :

ــ ولو ..! عبر مكبِّر الصوت ..! بالعناق والأحضان ..! أهذا سؤال يا قصي ؟! نم الآن ، والصباح رباح .. نم !

لم تنم تساؤلاتي . ظلت مستيقظة كجسدي الذي إستوى بين الأجساد الغافية مثل شاهدة في مدفن كبير . قلت في نفسي : «أهذا سؤال يا قصي حقاً !! وماذا يمكنك أن تفعل غير أن تشوِّح لهم !؟» أغرتني فكرة التشويح ، فتربعت للحال أرسم ، مبتهجاً ، إشارات الزيارة : «في البداية لا بد طبعاً من أن أمدّ يديَّ وأشوِّح لهم يمنة ويسرة ليميزوا شبّاكي .. بعدها أثني ساعدي وأشدّ قبضتي دالاً على أني بخير .. ثم أضمّ أصابعي إلى وجهي وأطلقها نحوهم ليبادلوني القبل .. أقاطع يديّ وأباعدهما فارداً أصابعي لأطمئنهم إلى أنني لا أحتاج شيئاً ... أشير بسبابتي نحوهم ثم أفتل راحتي لأسألهم عن أوضاعهم .. أفرد أصابعي وأدفعها للأسفل مرات لأطمئن على الصغير . ترى هل تجلبه معها ؟ وإن أتى .. هل سينادوني ؟» .

إزرقَّ سواد السماء المطل من الشباك وارتخى جفناي ، فتركتْ عيناي الشباك وانحدرتا على جدار المرحاض كيف كنت سأراهم لولا المرحاض ! لا بد أن المهندس كان سجيناً يوماً !

دسَّ النعاس جسدي تحت البطانية ، فيما ظلت عيناي ملتصقتين بجدار المرحاض .. بالمسافة التي تفصل سطح المرحاض عن شفة الشباك والتي لا تزيد عن نصف قامة .. نصف قامة تفصل البئر عن البيوت والشوارع والازدحام الجميل والقطط السائبة والضجيج الملوَّن واللقاءات والأسرَّة الدافئة وابريق الشاي الساخن وصفير القطارات والأرغفة الطازجة والضحك بطلاقة والبكاء بطلاقة .. عن الانتظار .. والغيـ .. وعن ...

* * *

تناوشتني لهوجة الأيدي ، فأفقت لأرى المهجع يغلي ويفور !

ــ حلو والله يا قصي ..! اليوم زيارتك وأنت في سابع نومه !!

ــ قم يا رجل .. لو كنت مكانك لما غفت عيني !

دفعت إرهاقي .. ونهضت .

مثل حبات «البوشار» رحت أتقافز هنا وهناك : الشفرة يا سعيد .. أين الشفرة ؟ أحمد ناولني البنطال والقميص من عندك .. هل لديك قليل من العطر يا معن ؟

غطّست رأسي في الماء ، ورحت ألوب مرتبكاً دون هدف .

رنَّت ضحكة رأفت عبود في أذني :

ــ جنَّ صاحبكم يا جماعة ! حلاقة وعطر في زيارة من الشباك على بعد خمسمائة متر !!

ضحكت لضحكته فعلّق خالد :

ــ حسد أم ضيقة عين ؟

ورحنا نضحك في حين نبر عارف :

ــ ضيق وقت يا جماعة ..!

ثم انتحى بي جانباً :

ــ اسمعني يا قصي . المسألة ليست لعباً . حاذر وأنت أمام الشباك . أصحابك ينتظروننا على نكشة . إذا لقطوك فلا تعترف . كُلْ نصيبك ولا تعترف . إذا اعترفت سيلحقنا البلاء جميعاً .

فاجأتني جديته ، فقلت مستغرباً :

ــ وكّل الله يا عم .. أأنا ابن اليوم !؟

واصل نبرته الحازمة :

ــ لا ابن اليوم ولا ابن البارحة . أنا أَعرَف بهم منك . ألف سين وجيم . إبق أمام الشباك ما شئت .. ولكن حاذر .. ثم لا تصعد حتى أخبرك . ادخل المرحاض الآن وحضّر نفسك .

تركني ومضى نحو باب المهجع . انحنى يسترق نظرة من الكوة وأخرى إلى ساعة يده . فيما انشغل آخرون بإنزال الحقائب والأكياس والصناديق من سطح المرحاض .

دلفت إلى المرحاض ، فباغتني فرح غامرٌ ! كانت نكهة الدخول

إلى المرحاض مختلفة هذه المرة . رغوت على ذقني ورحت أحلقها ، فطفا وجه سعدة مع الرغوة . سمعت سخرياتها المغنّاة : «نعيماً يا فهيمي .. نعيماً .. يا شقاي» ثم وجهها حين أُبرقِعه بالصابون ، وهروبي ، واحتجاجاتها وركضها .. ثم ضحكاتنا .. ضحكاتنا وانشغالي عن الفرشاة والصابون وذقني نصف المحلوقة .

خلعت المنامة ولبست البنطال والقميص . صففت شعري فأحسست كأني أهمُّ بالخروج من السجن . عام ونصف عفَّن جسدي داخل المنامة . كدت أنسى متعة البنطال والقميص على الجسد .

اقتحمتْ المرحاضَ الأصواتُ المتتابعة :

ــ اخرج يا قصي .. اخرج يا قصي .. عجّل !

اندفعت من المرحاض ، فرفعتني الأيادي كما في المظاهرات والأصوات خلفي :

ــ سلِّم يا قصي ..

ــ أخبرهم أن المقطوعين هنا كثيرون ..

ــ الزوّار لك والهدايا لنا ..

اقتربتُ من الشباك وانتحيت في زاويته .. فانكشفتْ الدنيا كلها في آن : الضياء الفضي تسبح فيه الشوارع الاسفلتية والحواف الترابية ، الدكاكين المشرعة على الرحب ، الأشجار المدلاة بغنج حنون ، نساء ، رجال ، وأطفال يتجهون كيفما شاؤوا ، يتبضعون أو يتسامرون أو يقفزون من رصيف إلى آخر من بقعة إلى أخرى طلقاء .. طلقاء مثل غزلان شاردة .

حدَّقت أُميز الناس ، فلمحت من بعيد سعدة تتأبط يد أمي وتجر صغيراً باليد الأخرى . همى الشوق فيَّ . ألصقت وجهي إلى القضبان ، فانفسحت الدنيا .

صاح صوت في المهجع :

ـــ بانوا عليك ؟

أومأت بيدي أن بلى . وظل وجهي لصيق القضبان .

كانت البنايات تتوزع على نهاية سفح الجبل ، والطرق الاسفلتية الضيقة تتلوى بينها وتنتهي جميعها إلى اسفلت عريض يحتل مقدمته كشك الحراسة ، بعدها يتابع صعوده متعرجاً إلى بوابة السجن الرئيسة .

وسط فسحة أقرب بنايتين ، تجمَّعت سعدة إلى أمي وهي ترفع غسان إلى صدرها ، ثم راحوا يتطلعون بنظرات زائغة .. فيما كنت أنقّل وجهي من فتحة قضبان إلى فتحة أخرى مثل حيوان جائع مقفَّص !

رفعوا أياد مترددة تائهة ، فمسني هوس لهوف . دفعت يديَّ من خلل القضبان ألوِّح بهما وألحقتهما بصوتي الفائر ...

ـــ سعدة .. سعدا .. سعداااا

تلهوجت الأصوات في المهجع :

ـــ لا تصرخ يا قصي ..

ـــ يلعن كفرك .. لا تنادي !

ـــ اسحب يديك ..!

ثم سطا صراخ أجش مصدور زاجر من خلف القضبان :

ـــ انزل عن الشبَّاك يا حيوان .. انزل يا كلب !

سحبت يديَّ وصوتي ، فانهالت التحذيرات من المهجع :

ـــ انزل يا قصي .. انزل .. انزل بسرعة !

قفزت إلى الأرض . دفعوني نحو المرحاض وأغلقوا الباب . ثم عمَّ سكون مترقب .

فتح الصوت المصدور الأجش باب المهجع ودخل راعداً ، فسكنتُ مثل الموتى .

ـــ يخرب بيتكم يا حيوانات ! من كان على الشبّاك ؟ ها ؟! قولوا ...

صاح الأجش وهو يقترب من المرحاض :

ـــ العمى ! الواحد منكم لا يفهم بالكلام ! سياسيون اضرب واطرح ولا تفهمون ! عيب . استحوا من أنفسكم . قلنا لكم ألف مرة ها المضروب لا تصعدوا إليه ... (تتالت لسعات خيزرانته على جدار المرحاض) .

ـــ لا تصعدوا ! العمى .. يعني وماذا ترون من الشبّاك ؟

صاح أحدهم :

ـــ نشم رائحة ربنا .. أقل منها ؟!

ـــ شمك برص ! ألا تريدون أركيلة أيضاً !! أقسم بشرفي ...

بَعُدَ صوت الأجش المصدور فيما تدانى قلقي : «هل يذهبون ؟ ماذا يفعلون الآن ؟ هل رأوني ؟ أتراهم ميَّزوا شبّاك المهجع ؟» .

ـــ ... نعم سأربي به السجن كله ! جرِّبوا مرة أخرى ..

تعاظم هاجسي : «لا بد أنهم ينتظرون . المهم أن يكونوا قد رأوا يدي . لو رأوها لظلوا ينتظرون . إلا إذا .. إذا ظنوا أن الزيارة انتهت !!» .

عاود الأجش الانزراب من المرحاض صائتاً :

ـــ لا .. ليس صحيحاً ! لم تسقط الأغراض من تلقائها ..

خبطت قدمه على باب المرحاض واستقرت ، فكتمتُ صمتي :

ـــ أتظنون صعبة علينا ؟ لا وحياتكم ! مثل شربة الماء نوزعكم على الزنزانات إلى ما شاء الله ...

ضاقت جدران المرحاض حولي : «لا تذهبي يا سعدة .. قدِّري وضعي .. لحظات أخرى .. لو أستطيع لنفذت إليك من هذه الفتحة ..» .

نزلت القدم عن باب المرحاض وتناءى الصوت :

ـ على كل الأحوال جربوا مرة أخرى ! أقسم بشرفي هذا آخر إنذار . شفتم ما صار مع المهجع الثالث والسادس كرمى للشباك ! طيب .. أنتم هنا وأنا هنا ..! » .

ندهتُ دون صوت : وأنا هنا يا صاحب الشرف . كُفَّ بلاءك عنا وانقلع . ماذا يفعلون الآن ؟ هل ذهبوا ؟ هل ينتظرون ؟

عيّل صبري . أمسكت رتاج الباب يزاحمني توقي . كَفَّ المصدور عن الصيات . ثم أزّت مفاصل باب المهجع وسط سكون تام سوى ضجيج اندفاعي . أُغلق الباب وفار المهجع ثانية :

ـ قصي ... قصي .. اخرج ... عجّل .

مثل حصاة في سيل ، اندفعتُ . جرفتني الأيادي وعلوت المرحاض . التصقت . تطلعت ...

في تلك اللحظة ، كانوا يستديرون منحدرين . رفرفت جفنيَّ أمعنُ النظر . كانوا يستديرون منحدرين . انزلق قلبي وراح يدرج معهم : أمي تقوّس ظهرها ، وغسان يتنازق حرداً فيما تحاول سعدة تهدئته . أمسكتْ به فنتر يده وراح يركض صاعداً الطريق في خط متعرج متواتر . نطَّ قلبي . ركضتْ سعدة خلفه تناديه . رميتُ يديَّ وصوتي وعينيَّ من خلل قضبان الشبّاك :

ـ سعدة .. سعدا .. سعدا!!!

وفي لحظة ، هبّت الأصوات في مهجع تستنكر وتحذّر : « لا تصرخ يا قصي .. انزل يا مجنون .. انزل .. » وكانت سعدة قد أدركت جسد الصغير الحرد ، فجنّ شوقي وتدفق ، ورحت أصرخ وأنادي :

ـ سعدة .. سعدا .. سعدا!!!

شباط /١٩٨٨

مثل حجر في نهر

لم تدم الحادثة أكثر من خمس دقائق ، أو عشر دقائق على أطول تقدير.... غير أن وقوعها عند الظهيرة، نحو الثانية والنصف ،وقت خروج الموظفين ، وفي غمرة ازدحام الناس المتبضعين أو اللاهين أو الباحثين عن البضائع، ووسط شارع رئيسي عام في مدينة رئيسية هي الأخرى، جعلها علامة بارزة أشبه بالوشم على الوجه .

هو شارع ... لكنك ماأن تنعطف اليه حتى تخاله نهراً : ناس يتدفقون في لجة ناس . من الجهات الأربع يتوافدون جداول ، مثل أرتل النمل ، ليصبوا على ضفتيه ، أو يفيضوا الى مجراه ، مختلطين مع السيارات الصغيرة والعربات والشاحنات . يتجمعون ، متزاحمين ، في بداية ممر المشاة ، ما أن يأذن الشرطي حتى يندفعوا وهم يقطعون الشارع كتلة تتلاطم بكتلة تندفع باتجاه معاكس ، تتداخلان لحظة ، وفي لحظة تنفكان باتجاهين متغايرين... تنسكبان على رصيفي الشارع المتقابلين ، ثم تنفرطان الى أياد تحمل خبزاً وأكياساً وخضاراً وعلباً وزيتوناً، وأياد تطوح فارغة، وأخرى تتهدل ، وأخرى تهرش رؤوساً. أرجل تدق الأرض ، وأرجل تمسحها ، وأخرى تتقافز عليها . صدور تنتفخ وتضمر وهي تشهق هموماً وتزفر هموما . غابة من وجوه . وجوه مثلومة بكآبة ، ووجوه مخددة بالتوهان، وأخرى وأخرى تنزّ فزعاً مفزعاً . ناس يختلطون بناس . يتشعبون ويتفرعون ثم ــ سريعاً كما وفدوا الشارع ــ يتلاشون في منعطف ، أو

حارة ، أو دكان ، أو بيت ، خلف شجرة ، أو داخل خربة . ينسابون متلاحقين كما في مجرى نهر ..

وكما لو سقط حجر ضخم في مجرى نهر ، انغرزت سيارة رمادية في مطلع الشارع ، وسط ممر المشاة تماماً ، عند نهاية خطين كحليين رسمتهما العجلات باندفاعها المفرمل الذي اطلق زعيقاً رفيعاً، جارحاً، مثل صيحة امرأة ،فاستيقظ الناس من سدرهم ، وراحوا ينساحون دوائر حول السيارة التي فُتحت ،بومضة برق، أبوابها الأربعة الجانبية والخامس الخلفي ، وانقذف منها رجال هائجون، في حين دجَّت على الأرض ، أمام السيارة ، رزمة أوراق تخلص منها شاب ، وانطلق يعدو محاولا اختراق دوائر الناس التي تشكّلت بفعل المباغتة ربما ، أو دافع الفضول ، أو أثر زعيق العجلات الذي علا ، رغم الضجيج، على الضجيج .

انبلجت ،في طرفة عين ،لحظة تباعد الناس ،ثغرة في محيط دوائرهم ، انقذف من خللها الشاب المذعور، وتقاذف خلفه رجال السيارة الملهوجون ، فأدركه أحدهم وشدّه . نتر الشاب جسده فأفلت ، وكاد يدركه آخر لولا أن التفّ ،مثل شهاب، خلف دوائر الناس المشدوهين ،وانخرط متعرجا بين صفوفهم يلحقه رجل يهدد بسلاح ويطلق أوامر : «أمسكوه ... أمسكوا المجرم .. أمسكوه».. ويلتفّ ، من الجهة المقابلة داخل دوائر الناس، الرجال الأخرون لملاقاته .

آن أطبق رجال السيارة على الشاب، راح يصرخ كمن يفضح سراً : «كذابون... أمسكوهم عني... كذابون.. امسكوهم عنكم» فيما الشفاه السفلى للناس، الذين انفرطت دوائرهم ، تنقلب متحيّرة ، وعيونهم تجحظ بحياد ، أو تغور بدعة وشيء من الحزن ، وفيما التوت اعناق بعضهم مستغربة بين اكتاف متقوسة تسأل ، واستقرت حبة سبحة بين أصبعين هامدين ، ولاذت امرأة برجل، وتحوقل شيخ ، وبسملت عجوز .

ولحظة شرعت تنهال فيه قبضات رجال السيارة وأرجلهم على مساحة جسد الشاب المنتفض مثل دجاجة لم تذبح جيدا . وقبل أن يرفعوه ليحشوه من الباب الخلفي ويحشوا معه صياحه المخنوق : «ياناس... امسكوهم عنكم .. ياناس ... أمسكوهم عنكم» وقبل أن يلجوا ويصفقوا الأبواب خلفهم وتقلع السيارة تنهب الشارع ... أخذت الأوراق تتطاير وتتبعثر تحت وخلف أرجل الناس . الارجل التي تفرّقت وهي تمسح الأرض ، أو تجمّعت كتلة تتلاطم بكتلة في ممر المشاة أول الشارع الرئيسي المكتظ بناس يتدفقون في لجة ناس . يتشعبون ويتفرعون ، ثم ــ سريعا كما وفدوا ــ يتلاشون في منعطف ، أو حارة ، أو بيت ، خلف شجرة ، أو داخل خربة ... ينسابون متلاحقين كما في مجرى نهر ..

نيسان /١٩٨٨

الغول

كاد يصرخ ويولول مناديا «ياأمي...» ،لكنه خاف!

تذكّر حدقتيه الجامدتين في محجريهما كمخلبي قط بري ، ونظراته القاصمة ، واحمرار وجهه الناري ، ومنخريه النافثين مثل فوهتي بركان... فتكوّم على نفسه وأخمد انفاسه ذائباً في رعبه ...

ثم خطر له أن يلتفت ليرجوه ألا يفعل . يتوسل اليه بكل مايعتصره من فزع... لكن رائحة الخمر الكثيفة التي فاحت اليه للتو خدَّرت عزمه وأشعرته ان لاجدوى من خاطره ، ثم راحت تعيد الى ذاكرته هيئته ساعة يعود الى البيت مخمورا ، فاجرا ، يرنحه الشراب والسهر .

«آه لو كانت أمي حيّة» رجافي قلبه وشدّ على جفنيه المطبقتين كما لو كان يجهد في انتزاع رخام القبر عن جثة أمه ، يعيدها اليه ، ثم يحتمي بها — كما إعتاد أن يفعل في حياتها — كي تذهب معظم الصفعات والركلات هباء ، أو تتلقاها أمه ، وهي تخفيه خلفها ، تحميه من سورته المجنونة ، دون أن تئن أو تشكو، وكأن حماية ولدها غاية تهوّن عليها آلامها وتعطيها القدرة على تحمل كل المصائب والبلاوى التي تحلّ عليها من زوجها .

أكانت أمه ، إذن ، تخمّن حدوث ذلك ، ولذا دأبت في حياتها توصية وتلحّ في أن يخبرها بكل مايعرض عليه أو يحدث معه ؟! أتراها كانت تحتاط في سرها فما برحت تحذّره من أي شخص ، قريب أو بعيد، وتصر على أن يلازمها باستمرار، وخصوصا في الليل حين يأوى الى

النوم ؟! .

أتكون قد حدست بما لم يحدس به أو يعيه أو يخمنه ، فبقي هاجسها سراً عليه طي الغموض ، حتى انزلق مع قدمها من على سطح الدار ودُفن معها ، فلم يستطع تبيّنه ومعرفته إلا في غياهب تلك الليلة ؟

بلى... حدث وعاندها مرات في وصاياها ... وحرد مرات أخرى أيام كانت تستنكر مجيء أصدقائه خلال وجود ابيه في البيت وغيابها عنه ، أو تؤنبه إذا لم يعلمها قبلا كي تترك مشاغلها وترعاهم ... سوى أنه رغم زعله وضيقه من أوامرها وتحفظاتها ، كان يمتثل ويرضى من مجرد ضمّة أو قبلة أو توسل حنون من عينيها ..

ماعنَّ على باله ان يسألها سبب حرصها الزائد عليه ومداراتها الغالبة ، وقلقها المتخوف من بقائه مع أبيه أو انفرادهما بعيدا عن ناظريها . وحتى حين فعل وسألها لماماً ، ماألحَّ وما أصر ... فابتسامتها ورجاؤها ومداعبتها كانت كافية لتطفيء دهشته وتساؤلاته الحارة ، فتقول وتعيد : «كرمى لي ياأمي ... كرمي لي ياحبيبي» ،فيلين وينسى .

أبوه أيضاً كان يحيره في معاملته ! بل كان هو الحيرة ذاتها ! حيرة عجيبة ومفزعة تقرض عقله الغض !

فحيناً يضربه ضرباً عنيفاً أعمى لأية زلة أو ذنب بسيط أو خطأ عابر ... وحيناً يغفر له أكبر عيوبه وذنوبه فيدلله ويحضنه ويلاعبه كما لو كان جروا ودوداً . جلفاً معه قاسياً عليه مرعباً رعباً قاصماً مرة... ولينا هيناً متوددا الى درجة مريبة مرة أخرى . وليلة يعود مخموراً يتعتعه الشراب ــ وكثيراً ماعاد ــ يتحول الى شخص آخر تماماً يكاد لايتعرفه لشدة غضبه وهياجه الذي يجتاح البيت بما فيه ومن فيه ، فيزعق في وجه أمه ويلعنها دونما سبب ، يصفعها بكل قوته ، شاداً شعرها وملقياً بها أرضاً ، ثم يلتفت اليه ، يقوّضه بنظراته كأنما يبغي التهامه ، يهجم عليه فيكاد

يكسّر أضلاعه ، في حين تندفع امه ــ على آلامها ــ لتحجز بينهما ... غير انه كثيراً ماأحس به يتسلل الى غرفته ، في وقت متأخر من الليلة ذاتها ، ليداعب خصلات شعره ويمسح على وجنتيه ويديه وفخذيه ، ثم يلفّه ويضمّه الى صدره ، فيؤجج حيرته ويهيج استغرابه ، إذ يبدو له أبوه ــ في تلك اللحظات ــ شخصاً آخر غريباً كل الغرابة ، لايشبه أباه المخمور ولاأباه الصاحي !!

أكان لابدَّ ان تجتمع عليه كل الوقائع والظروف ، فتموت أمه بغتة عام بلغ العاشرة من عمره، ثم لاسباب يجهلها يمكث ابوه ، رغم شبابه ، دون زواج من امرأة اخرى، ويُترك هو وحيد أبيه دون أخ أو أخت ... حتى يعرف السرَّ الرهيب الكامن في قلق امه وهواجسها ، والتناقض المريب في طباع ابيه ومعاملته .... وتتكشف له مأساته في تلك الليلة ، ثم تتوالى عليه عارية بعد ذلك ؟

هذه الهموم والافكار والتساؤلات والمخاوف جميعها داهمته دفعة واحدة ، في غبش الدقائق القليلة الفاصلة بين نومه العميق واستيقاظه المباغت ... بين ظنه أن كابوساً ركبه في منامه وإحساسه بانثناء حافة فراشه وسماعه أزيز السرير من ثقل الجسد خلفه وفوحان رائحة الخمر في عتم غرفته، ثم لوبان يدين ضخمتين وتخطُّفهما على جسده الطري كله لوباناً وتخطّفاً شهوانياً ، موتوراً، مرتعشاً !

لحظتها، كاد يصرخ ويولول منادياً «ياأمي....» ،لكنه خاف !

خاف، لو فعل ، أن يجنَّ أبوه ويلتهمه فلا تستطيع أمه الغائبة أن تحجز بينهما وتصدّ بجسدها هياجه عنه . خاف لو التفت ان تنغرز عيناه الجاحظتان في جسده . خاف من ساقيه القويتين وهما تلتفان حول خصره النحيل، تلوبان ثم تتشابكان ثم تتنافران كأفعتين معمّرتين ، وفكر أن يرجوه . أن يضرع اليه . أن يقبّل قدميه .. لكن صاحب الجسد الضخم

خلفه ، والذي لايشبه مخموراً ولاصاحياً ، كان يرغي ويزبد. يجأر ويفح . يتلوى ويختلج .. فيما أصابع يديه المضطربة تفك أزرار منامته ثم تسحبها .

عندها، مثل سحابة ، تهادت أمّه في مخيلته ..

كان جسدها عارياً، مسجى ، مثل جسده الآن . تتزاحم عليه الأيادي كما على جسده ، تقلّب النسوة جسد أمّه فينقلب معها . يسفحن الماء الساخن فوق الصابون ، فيحس بجسده يكتوي بماء حار، لزج ، ينساح على فخذيه . برهتها ، زعق بما تبقى في روحه من روح : «ياأمي....» ،فلا التفتت ولاردّت . وحدها أيادي النسوة كانت تتقاطع على جسدها لتحشو فمها وانفها وأذنيها بمزقٍ من قطنٍ أبيضٍ ، فيغصّ بندائه ، وتضيق رئتاه ، ثم تذوي الغرفة وتذوب عن عينيه في ظلامها الأبكم ...

تموز /١٩٩٠

القصص

١ ــ الناس .. الناس ٩
٢ ــ شتاء طويل ١٧
٣ ــ ماذا قلت ياأبي ؟ ٢٥
٤ ــ أصعد قاسيون ... وأنادي ٣٣
٥ ــ صباح ذلك الأحد ٤٣
٦ ــ النحنحات ٥١
٧ ــ الصقيع ٥٧
٨ ــ ساعة الظهيرة ٦٥
٩ ــ الهاجس ٧١
١٠ ــ المرحاض ٧٩
١١ ــ مثل حجر في نهر ٩٣
١٢ ــ الغول ٩٩

يصدر قريباً

١ ــ رامي السهم الأبيض (رواية للفتيان)	جيمس هوستن ترجمة :دلال حاتم
٢ ــ أراغون	د. سامي الجندي
٣ ــ تاريخ فينيقية الشمالية	جان ري كوكي ترجمة : ناظم الجندي
٤ ــ الجنرال (رواية)	آلان سيليتو ترجمة : عبد العزيز عروس
٥ ــ مجنون السا	أراغون ترجمة : دكتور سامي الجندي

صدر عن دار الجندي

١ ــ بيت الأرواح (رواية)	ايزابيل الليندي ترجمة : د. سامي الجندي
٢ ــ تصورات العالم في الفكر الاسلامي (دراسات)	د. ابراهيم عاتي
٣ ــ المعتقل (رواية)	ليجسون كاييرا ترجمة : عبد العزيز عروس
٤ ــ الفطيرة الطائرة (رواية للفتيان)	جان روداري ترجمة : دلال حاتم
٥ ــ تقرير الى غريكو	نيكوس كزانتزاكي ترجمة : ممدوح عدوان
٦ ــ الشمس وأصابع الموتى (شعر)	الشاعر علي الجندي
٧ ــ في البدء كانت الثورة (مسرحية)	د. سامي الجندي